سلسلة قضايا عقدية (٩)

منهج أهل السنة والجماعة

في إثبات أصول الدين
التوحيد والبعث والنبوة

قراءة في المصادر والأدلة
عند شيخ الإسلام ابن تيمية

جمع وإعداد

محمد عبد الهادي المصري

دار الفضيلة

دار العواصم

منهج أهل السُّنة والجماعة
في إثبات أصول الدين
التوحيد والبعث والنبوة

قراءة في المصادر والأدلة
عند شيخ الإسلام ابن تيمية

جمع وإعداد
محمد عبد الهادي المصري

دار الفضيلة

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

دار الأيمان : مصر - الأسكندرية



توزيع

دار الفضيلة

الرياض ١١٤٣٣ - ص.ب ١٠٣٨٧

تليفاكس : ٢٣٣٣٠٦٣

الإهداء

إلى طالب العلم الذكي ....

الذي اشتاقت نفسه إلى معرفة الأدلة ...

والخروج عن التقليد

المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلاهادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الرسول ﷺ بيَّن جميع الدين، أصوله وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله. فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان؛ وكل من كان أعظم اعتصاماً بهذا الأصل، كان أولى بالحق علمًا وعملاً.

والرسول ﷺ قد بيَّن الأدلة والبراهين والآيات الدالة على الحق أحسن

بيان؛ ودل الناس وهداهم إلىٰ الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التي بها يعلمون المطالب الإلهية؛ وبها يعلمون إثبات ربوبية الله ووحدانيته وصفاته، وصدق رسوله، والمعاد، وغير ذلك مما يحتاج إلىٰ معرفته بالأدلة العقلية . . .

فدلالة الكتاب والسنة علىٰ أصول الدين ليست بمجرد الخبر؛ كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم. بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم إلىٰ الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين»[1] أ. هـ.

* * *

وهذا البحث الذي بين أيدينا، ما هو إلا محاولة متواضعة لفتح الأبواب وإلقاء الأضواء علىٰ الأدلة التي ذكرها الله في كتابه، والتي تبيّن أن ما جاء به الرسول حق.

فهو مقدم في المقام الأول إلىٰ طالب العلم الذكي ـ كما سماه شيخ الإسلام ـ والذي اشتاقت نفسه إلىٰ معرفة هذه الأدلة؛ لكي يخرج بمعرفتها عن التقليد وعن الجهل، ويتجنب بها الوقوع في مناهج أهل البدعة والضلال.

وهذا البحث ليس استقراءً لهذه الأدلة، وليس استخراجًا لها من القرآن والسُّنة، ولا تجميعًا لها وعرضها عرضًا منهجيًا. فهذا عمل ضخم ومجهود كبير نسأل الله أن ييسر له من هو أهل له .

(١) مجموع الفتاوىٰ جـ١٩ ص١٥٥ وبعدها .

وإنما بحثنا هذا؛ وكما ذكرنا؛ مجرد محاولة لفتح الأبواب، وإلقاء الأضواء والتعرف على الملامح العامة التي تميز منهج أهل السنة والجماعة ـ في هذا الباب ـ عن المناهج المبتدعة؛ الفلسفية والكلامية؛ والتي قدَّمت إلى الأمة؛ ولازالت تقدم؛ زوراً وبهاتاً؛ على أنها المنهج الحق، بل والوحيد أيضًا، في هذا الباب! ومن خلال البحث تتقرر ثلاث نقاط جوهرية:

(أولاً) أن لأهل السنة والجماعة منهجًا واضحًا للوصول إلى الحق والاستدلال عليه في مسائل الربوبية والتوحيد والصفات؛ والنبوة؛ والمعاد، وكافة مسائل أصول الدين.

(ثانيًا) أن منهج أهل السنة والجماعة هنا، منهج متميز تمامًا عن غيره من المناهج الفلسفية والكلامية الضالة، والتي تستمد مقدماتها الموهومة أساسًا من المنطق اليوناني، وما تفرع عنه من مدارس فلسفية تدور في فلكه، حتى وإن انتسب بعضها إسمًا إلى الإسلام كذبًا وتدليسًا.

(ثالثًا) أن منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب يعتمد تمامًا على القرآن والسُّنة. فالنبي الذي جاء بمسائل أصول الدين، قد جاء أيضًا بالأدلة الدالة على أن ما يقوله حق. وإذا وجب أن يؤخذ عن النبي ما أخبر به من أصول الدين، فلأن يؤخذ عنه ما جاء به من الأدلة على هذه المسائل أولى وأحرى. فما جاء به النبي هنا هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو الدعوى وهو البينة على الدعوى؛ وهو الشاهد والمشهود به.



ولقد قسمنا البحث إلى ثلاثة أبواب. تحدثنا في الباب الأول عن «الفطرة» ودورها في المعرفة؛ وكيف أن النفس البشرية مفطورة على معرفة الحق

ومحبته؛ وأن العلوم الفطرية علوم بديهية ضرورية لا تحتاج هي بذاتها إلىٰ برهان بل هي التي تنبني عليها كل العلوم النظرية البرهانية الأخرىٰ. وكيف أن الأنبياء والرسل إنما يذكرون العباد بما هو مركوز في فطرتهم، ويدعونهم إلىٰ موجب هذه الفطرة .

وفي الباب الثاني تحدثنا عن «العقل» كغريزة يعلم بها الإنسان ويميز ويقصد المنافع دون المضار، وكيف يؤدي العقل إلىٰ العلم واليقين باعتباره شرطًا في معرفة العلوم وصلاح الأعمال وإن كان ليس مستقلاً بذلك .

ودور الحواس كطريق للعقل يدرك بها الحقائق المعينة الموجودة بالخارج وقدرة العقل علىٰ معرفة التماثل والاختلاف؛ وهو «الميزان» الذي فطر الله عليه عباده؛ وكيف اعتمد الشرع علىٰ هذه الخاصية العقلية، مع خاصية التحسين والتقبيح العقلي؛ لكي يبني منهجه في الاستدلال علىٰ ثبوت الربوبية والتوحيد، والنبوة، والمعاد .

وأما في الباب الثالث والأخير، فقد تحدثنا عن «النبوة» وكيف أن العقل الفطري بمجرده يعرف أنه لابد من إرسال الرسل ثم الثواب والعقاب استدلالاً بصفات الرَّب وآياته. وكيف أن الأنبياء جنس معروف ومعتاد في البشر وعلومهم وآياتهم معلومة ومتواترة. وأنهم يأتون بالأدلة والبراهين الدالة علىٰ صدقهم وصحة ما جاءوا به عن ربهم وأن آياتهم كثيرة ومتنوعة وناصعة البيان في التفريق بينهم وبين غيرهم .

وفي خاتمة البحث لخصنا النتائج التي توصلنا إليها وعرضناها بطريقة متسلسلة حتىٰ يسهل تركيز هذه النتائج في ذهن القارئ .

* * *

ولقد اعتمدنا في إعداد هذا البحث على كتابات معينة لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ باعتباره امتداداً لشيخه رحمهما الله تعالى ـ كانت أوضح ما يدل على الأفكار الأساسية التي كانت وراء البحث .

ولقد حرصنا أن ننقل عبارات الشيخين كما هي ، فهي من الوضوح والدقة والبيان عن المقصود مالا يحتاج معها إلى مزيد شرح أو تفسير . ولم نتصرف فيها إلا في أضيق نطاق ممكن ؛ ربطًا بين الفقرات أو حذفًا لبعضها أو إعادة لترتيبها ؛ تسهيلاً للقارئ وتركيزاً للأفكار الأساسية للبحث ، واختصاراً لحجمه وحتى لا يخرج عن الهدف من ورائه .

وذكرنا في الهوامش أسماء المراجع الأصلية وأرقام الصفحات لكل فصل حتى يرجع إليها كل من يريد المزيد من التفصيل والبيان .

نسأل الله العلي القدير أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه الكريم ، صوابًا على سنة نبيه ﷺ ؛ وأن ينفع به ؛ إنه نعم المولى ونعم النصير . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .



الباب الأول

الـفـطـــــرة

« معرفة الله عز وجل والإقرار به والإنابة إليه

هي الحقيقة الأولى التي فطر الله عباده عليها؛ وهي الأصل والدليل والبرهان التي تنبني عليها كل المعارف الأخرى . والنظر في الآيات يزيد هذه المعرفة ولكنه لا ينشئها ابتداءً، فالمخلوق يعرف الخالق أولاً

حتى يعرف أن هذه الآيات دلائل مستلزمة له .. »

الفصل الأول

معرفة الله عز وجل هي الحقيقة الأولى في فطرة الإنسان والتي منها تتفرع كل معارفه الأخرى

يقول الله تعالىٰ ـ فيما روىٰ عنه نبيه ﷺ ـ في حق عبده المحبوب: **«فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يعقل، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يسعى»**.

وكان رسول الله ﷺ إذا قام إلىٰ صلاة الليل يقول: **«اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون؛ اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»**.

وعندما أنشد عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: **«والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا ... إلى آخره»** ؛ كان هذا بين يدي النبي ﷺ، فلم ينكره عليه.

وقد روىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: بماذا عرفت ربك؟ فقال: **«من طلب دينه بالقياس، لم يزل دهره في التباس، ظاعنًا في الاعوجاج زائغًا عن المنهاج. أعرفه بما عرَّف به نفسه، وأصفه بما وصف به نفسه»**.

فأخبر ابن عباس رضي الله عنه أن معرفة القلب لربه حصلت بتعريف الله سبحانه وتعالىٰ.

وفي الدعاء الذي علمه الإمام أحمد لبعض أصحابه: «يا دليل الحياري! دلني علىٰ طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين».

ولهذا كان عامة أهل السنة على أن الله يسمى «دليلاً» وتسميته سبحانه وتعالى «دليلاً» لا لمجرد أنه يستدل به كما قد يستدل بغيره ـ باعتبار أن الاستدلال بالحي القيوم أولى وأحرى من الاستدلال بغيره ـ بل لأنه «دالٌ» لعباده «هادٍ» لهم .

ولذلك كان من أسمائه سبحانه وتعالى «الهادي» وقد جاء أيضًا «البرهان» .

ولهذا يقول عبدالرحمن بن أبي حاتم : «عرفنا كل شيء بالله» . ويقول غيره : «عرفت الأشياء بربي . ولم أعرف ربي بالأشياء» . وقال بعضهم : «هو الدليل على كل شيء ، وإن كان كل شيء عليه دليلاً» . وقال أحدهم : «قالوا : ائتنا ببراهين . فقلت لهم أنّي يقوم على البرهان برهان ! » .

وقال الشيخ العارف للمتكلم : «اليقين عندنا واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردها» . أي إن معرفته سبحانه وتعالى من باب «العلم الضروري» الذي يلزم نفس العبد لزومًا لا يمكنه الانفكاك عنه .

وقال الشيخ إسماعيل الكوراني للمتكلم : «أنتم تقولون إن الله يعُرف بالدليل . ونحن نقول : إنه تعّرف إلينا فعرفناه» يعني أنه عرّفنا نفسه بنفسه وبفضله سبحانه وتعالى . ولذلك عندما سئل ذو النون المصري : بماذا عرفت ربك؟ فقال : «عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي ! .

أصل العلم الإلهي إذن فطري ضروري ، وهو أشد رسوخًا في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا : إن الواحد نصف الإثنين ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا : إن الجسم لا يكون في مكانين في نفس الوقت .

ومن هنا كان أول ما دعا الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الناس إليه : عبادة الله ، بالقلب واللسان والجوارح ، وعبادته متضمنة لمعرفته وذكره . وهذه هي الطريقة الصحيحة الموافقة لفطرة الله وخلقته ولكتابه وسنته .

قال شيخ الإسلام الأنصاري : «أول ما يجب على العبد : معرفة الله ؛ لحديث معاذ لما قال له النبي ﷺ : «إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله سبحانه وتعالى فأخبرهم أن الله افترض عليهم . . . الحديث» .

ومن هنا كان مذهب أهل السنة والجماعة أن أول واجب على المكلف هو الإيمان ؛ لا النظر ؛ ولا مطلق العلم ؛ بل بُنيت عقيدة أهل السنة على أن الإيمان هو أول الواجبات .

فالله سبحانه وتعالى قد فطر عباده على معرفته والإنابة إليه قبل النظر في آياته . فإنهم لو لم يكونوا يعرفونه سبحانه بدون هذه الآيات ، لم يعلموا أن هذه الآيات له . فالناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق ، فلابد أن يكونوا يعرفونه أولاً حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له .

تمامًا مثل كون الإسم يدل على المسمى ؛ فلابد أن يكون المرء قد تصور المسمى قبل ذلك . ثم يعرف أن هذا إسم له .

إذن فالنظر والتفكر والتدبر يزيد من معرفة الله سبحانه وتعالى ويجليها ويقويها . ولكنه لا ينشئها ابتداءً .

ولذلك قال الحليدي في معرفة الله : «هي أول الفرض الذي لا يسع المسلم جهله . ولا تنفعه الطاعة ـ وإن أتى بجميع طاعة أهل الدنيا ـ ما لم تكن معه معرفة وتقوى . .

فالمسلم إذا نظر في مخلوقات الله تعالى وما خلق من عجائبه، مثل دورات الليل والنهار، والشمس والقمر، وتفكر في نفسه، وفي مبدئه ومنتهاه، فتزيد معرفته بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال النبي ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه». .

ولسنا نقول إن الله يعرف بالمخلوقات؛ بل المخلوقات كلها تعرف بالله. لكن معرفته تزيد بالنظر في مخلوقات الله».

فالعبد الذي يدرك ببداهة الفطرة أنه مخلوق، مربوب، مفطور، مصنوع؛ يدرك في نفس الوقت خالقه وربه وفاطره وصانعه وأنه سبحانه وتعالى الأصل الجامع لكل علم وعمل؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الأعلى: ٢، ٣] .

فإذا كان الحق، الحي، القيوم، الذي هو رب كل شيء ومليكه؛ هو مؤصل كل أصل، وسبب كل سبب وعلة، والأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي تصير إليه الحادثات، وهو سبحانه أصل كل هداية وعلم، وأصل كل نصرة وقوة؛ عاد المخلوق إليه في علمه وعمله، لا يستهدي إلا إياه ولا يستنصر إلا إياه .

فكما لا يفزع العبد بفطرته إلا إليه. فلا يستدل إلا به. ويرد جميع الأواخر في العلم إليه؛ فذلك طريق الهدى وسبيله، وهو الترتيب المطابق للحق، والتأليف الموافق للحقيقة. إذ بناء الفرع على الأصل، وتقديم الأصل على الفرع : هو الحق.

فجماع الأمر : أن الله سبحانه وتعالى هو الهادي، كما أنه هو النصير؛ ﴿ ..وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان: ٣١][*] .

(*) الفتاوى جـ١ ص٤٥ ـ جـ٢ ص٢ .

الفصل الثاني

طريق العلم الفطري أرسخ وأكمل من الطرق النظرية القياسية أو الإرادية الذوقية

كل العلوم لابد للسالك فيها ابتداءً من مصادرات يأخذها مسلمة ـ عن نفسه أو عن غيره ـ إلىٰ أن تتبرهن فيما بعد، أو تكون هي بنفسها من باب «العلم الضروري» الذي يلزم نفس العبد لزومًا لا يمكنه الإنفكاك عنه، بحيث تبني عليه كل العلوم البرهانية الأخرىٰ، ولا يحتاج هو بذاته إلىٰ برهان بل يكون من جنس العلم الإضطراري الذي يضطر إليه القلب اضطرارًا.

وكل علم أو نظر أو قياس فلابد أن يرد إلىٰ هذه الضروريات أو الأوليات أو البديهات وإلا لزم الدور أو التسلسل .

والنفس البشرية مفطورة علىٰ العلم بالله عز وجل، فهو لها أول الأوليات وأصل المصادرات وأثبت المسلمات وأعمق البديهيات وأرسخ الضروريات، وهو أصل كل الأصول، ودليل كل الأدلة، وبرهان كل البراهين.

فالله سبحانه وتعالىٰ يقول في أول ما أنزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١] ، ويقول تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٣]. فَذكر سبحانه وتعالىٰ في الموضعين بالإضافة (ربك)، التي توجب التعريف وأنه معروف عند المخاطبين؛ إذ الرّب تعالىٰ معروف عند العبد قبل الاستدلال بكونه خلق.

فالمخلوق؛ مع إنه دليل وإنه يدل على الخالق، لكنه سبحانه وتعالى هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال؛ فمعرفته فطرية، مغروزة في الفطرة، ضرورية بديهية، أولية .

والإنسان بدون هذا العلم الفطري لا يمكنه أن ينال معرفة الله ولا الهداية إليه، بل ولا يحقق الثقة والطمأنينة واليقين في أي علم آخر .

ولكنه إذا أخذ العلم مسلمًا، ثم بنى عليه، ونظر في موجبه، وعمل بمقتضاه، كان معه دليل وبرهان، وجعل له ـ بأدنى سعي ـ مطلوبه من معرفة الله(١) ـ بالتعرف على رسله ـ بأدنى النظر فيما جاءوا به، وفي أحوالهم وآياتهم ـ وباليقين بأن الطريق التي سلكها صحيحة .

فإن نفس تصديق الرسول فيما أخبر به عن ربه وطاعته، يقرر عند المرء علمًا يقينيًا بصحة ذلك، ثم إذا قوي النظر في أحواله، حصل له من اليقين الضروري الذي لا يمكنه دفعه ما يكون أصلاً راسخًا .

فهذا الطريق الفطري الإيماني يحقق من العلم اليقيني ما لا تحققه الطرق القياسية والرياضية .

فإن قال قائل(٢): فمن أين لك ابتداءً صحة الإيمان بالله ورسوله، حتى

---

(١) المعرفة التفصيلية التي جاء بها الرسل لتكميل الفطرة .

(٢) يثير هذه الشبهة أتباع النظر القياسي من الفلاسفة والمتكلمين الذين تعبوا التعب الطويل لتقرير هذا الأصل في نفوسهم ـ وهو معرفة الله عز وجل ـ والذي يعتبر من بديهيات العقول عند أصحاب الفطر السليمة من أصحاب السنة والحديث بل وعند جمهور العقلاء. وقد تكلف هؤلاء الفلاسفة والمتكلمون الطرق الطويلة المعقدة التي يسمونها العقليات والنظريات والقياسات المبنية على المنطق اليوناني وما تفرع عنه. وفي مقابل=

يصير ذلك أصلاً تبنى عليه، وتنتقل معه إلى ما بعده ؟

فجواب هذه الشبهة هو المعارضة بالمثل :

فإن سالك سبيل النظر القياسي، أو الإرادة الذوقية : من أين له ابتداءً أن سلوك هذا الطريق يحصل له علماً ومعرفة ؟!

ليس معه ابتداءً إلا مجرد إخبار مخبر بأنه سلك هذا الطريق فوصل، أو خاطر يقع في قلبه بسلوك هذا الطريق، إذ كل العلوم كما ذكرنا لابد للسالك فيها ابتداءً من مصادرات يأخذها مسلمة إلى أن تتبرهن فيما بعد .

فإذا كان لابد في الطريقة القياسية، أو الذوقية، من تقليد في الأول - في سلوك ما لم يعلم أنه طريق، وأنه مفض إلى المطلوب، أو أن المطلوب موجود - فإن الطريقة الفطرية الإيمانية - إذا فرض أنها كذلك - لم يقدح ذلك فيها بل تكون هي أحق .

فالطريقة الفطرية الإيمانية شأنها شأن من طلب أن يحج إلى الكعبة، التي قد علم وجودها ابتداءً، فيسلك الطريق التي يعلم أنها تفضي إلى الكعبة، لإخبار الناس له بذلك، أو يستدل بمن يعلم أنه عارف بتلك الطريق.

فسلوكه الطريق بنفسه، بعد علمه أنها طريق المقصود - بإخبار الواصلين، أو سلوكه بدليل خريط يهديه في كل منزلة - لا يكون إلا بعد العلم بثبوت المطلوب، وثبوت أن هذا طريق، ودليل .

=هؤلاء سار أتباع الإرادات الذوقية في الطريق المقابل وحاولوا الوصول عن طريق التأملات الصوفية والرياضات الروحية والتي ورثوا أصولها أيضًا من بعض المدارس الفلسفية اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غيرها .

وهكذا حال الطالبين لمعرفة الله، والمريدين له، والسائرين إليه، قد عرفوا وجوده أولاً، وهم يطلبون معرفة صفاته، أو مشاهدة قلوبهم له في الدنيا، فيسلكون الطريق الموصلة إلىٰ ذلك: بالإيمان والقرآن.

فالإيمان: نظير سلوك الرجل الطريق التي وصفها له السالكون فإنهم متفقون علىٰ ذلك.

والقرآن: تصديق الرسول فيما أخبر به، وهو نظير اتباع الدليل منزلة منزلة.

ولابد في طريق الله منهما.

فالطريقة القياسية، والرياضية، إذا سلكها المرء وأفضت به إلىٰ المعرفة ـ إن أفضت! ـ علم حينئذ أنه سلك طريقًا صحيحًا، وأن مطلوبه قد حصل؛ وأما قبل ذلك فهو لا يعرف.

فأدنى أحوال الطريقة الفطرية الإيمانية ـ ولا دناءة فيها ـ أن تكون كذلك، فكيف إذا كانت تلك الطريقة مفضية قطعًا إلىٰ المطلوب، ولا فساد فيها، وما سواها يعتريه الفساد كثيراً، وهو لا يوصل وحده، بل قد يحصل نقيض مطلوبه (١).

لا طريق إذن إلا الطريق الفطرية الإيمانية، أو ما يفضي إليها، أو يقترن بها، فهي شرط قطعًا في درك المطلوب، وما سواها ليس بشرط.

---

(١) وهذا هو الشقاء الأعظم الذي يتوه فيه أرباب المناهج الفلسفية والكلامية والصوفية المنحرفة ما لم يتداركهم الله برحمته فيعودون إلىٰ منهج أهل السنة والجماعة.

ولذلك كان أهل هذه الطريقة الفطرية الإيمانية ـ وهم أهل السنة والحديث ـ هم أعظم الناس علمًا ويقينًا وطمأنينة وسكينة . فهم الذين يعلمون، ويعلمون أنهم يعلمون، وهم بالحق يوقنون، لا يشكون ولا يمترون.

وما أوتيه أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدىٰ، فأمر يجل عن الوصف .

وعند عوامهم عن اليقين والعلم النافع مالم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة والمتكلمين. وهذا ظاهر مشهود لكل أحد(*) .

* * *

(*) الفتاوىٰ جـ٢ ص١ ، ٦٧ ، ٣٢٤

الفصل الثالث

الفطرة السليمة قد يعرض لها ما يفسدها مثل ما يعرض للبدن الصحيح ما يمرضه

وبالرغم من أن القلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقًا به ودينًا له ؛ وبالرغم من أن معرفة الحق تقتضي محبته ، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه ـ لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل ـ لكن قد يعرض للفطرة ما يفسدها : إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق ، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه .

فالباطل على منزلتين : إحداهما تشغل عن الحق ولا تعانده ، مثل الأفكار والهموم التي في علائق الدنيا وشهوات النفس . والثانية تعاند الحق وتصد عنه ، مثل الآراء الباطلة والأهواء المردية من الكفر والنفاق والبدع وشبه ذلك .

قال النبي ﷺ : «**كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**» .

ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : «اقرأوا إن شئتم : ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ [الروم : ٣٠]» .

فالفطرة إذن قد تفسد من المرض ، كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه فهذه كلها تغير الفطرة كما يغير البدن بالجدع . ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله تعالى له من يسعى في إعادته إلى الفطرة .

ومثل الفطرة مع الحق : مثل ضوء العين مع الشمس . فكل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأىٰ الشمس .

والاعتقادات الباطلة العارضة من تهود وتنصر وتمجس ، مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس .

وكذلك أيضًا كل ذي حس سليم : يحب الحلو ؛ إلا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه حتىٰ يجعل الحلو في فمه مرًا .

فالفطرة إذن قد تفسد ؛ فقد تزول ، وقد تكون موجودة ولا ترىٰ : ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** (٤٦) ﴾ [الحج: ٤٦] .

فإذا حال بين المرء وبين الحق شغله بغير الحق من فتن الدنيا ومطالب الجسد وشهوات النفس . فهو في هذه الحال كالعين الناظرة إلىٰ وجه الأرض لا يمكنها أن ترىٰ مع ذلك الهلال من فوق رأسها .

وإذا حال بينه وبين الحق امتلاء نفسه بالآراء الباطلة والأهواء المردية فيكون هنا كالعين التي فيها قذىٰ ، لا يمكنها رؤية الأشياء الواضحة أمامها .

ثم إن الهوىٰ قد يعترض للمرء قبل معرفة الحق ، فيصده عن النظر فيه ، فلا يتبين له الحق ، كما قيل : حبك للشيء يعمي ويصم ؛ فيبقىٰ في ظلمة الأفكار وكثيرًا ما يكون ذلك عن كبر يمنعه أن يطلب الحق ﴿ **فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ** (٢٢) ﴾ [النحل: ٢٢] .

وقد يعرض له الهوىٰ بعد أن يعرف الحق ، فيجحده ويعرض عنه ؛ كما قال ربنا سبحانه فيهم : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ**

الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

فالقلب إذا صرف إلى الباطل فله وجهان : وجه منصرف إلى الباطل مشغول به؛ ووجه معرض عن الحق غير قابل له .

وهذا عكس القلب السليم الذي استعمل في الحق: إذ وجهه الأول مقبل على الحق محب له؛ ووجهه الآخر معرض عن الباطل كاره له(١)(*) .

* * *

(١) ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

(*) الفتاوي جـ١٠ ص١٣٢ ـ جـ١٩ ص٣١٢ .

الفصل الرابع
في ذكر الفطرة الأولى ومعناها

قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) ﴾ [الروم ٣٠: ٣١].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤].

وقد نقل عن الإمام أحمد وغيره أن الفطرة هي الإقرار بمعرفة الله تعالى وهو العهد الذي أخذه الله عليهم في أصلاب آبائهم حتى مسح ظهر آدم فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا: بلى.

فليس أحد إلا وهو يقر بأن له صانعًا ومدبرًا، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]؛ فكل مولود يولد على ذلك الإقرار الأول.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء،**

هل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها» .

ثم قرأ أبو هريرة : **﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾** [الروم: ٣٠] والحديث روي بألفاظ تفسر بعضها بعضًا ففي لفظ آخر للحديث : **«ما من مولود إلا يولد على هذه الملة». وفي رواية: «ما من مولود إلا وهو على الملة»**. وفي رواية : **«إلا على هذه الملة حتى يعرب عنها لسانه». وفي رواية: «على ملة الإسلام»** .

ولهذا قال علماء أهل السنة : الفطرة ها هنا الإسلام . قالوا : وهو المعروف عند عامة السلف أهل التأويل ، قد أجمعوا في تأويل قول الله عز وجل : **﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** قالوا : فطرة الله : دين الله الإسلام . واحتجوا بقول أبي هريرة في هذا الحديث : **«اقرأوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ »** .

وقد نقل عن عكرمة ومجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة أنهم قالوا : **﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** : دين الله الإسلام . **﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾** قالوا : لدين الله .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يروىٰ عن ربه تبارك وتعالىٰ أنه قال : **«خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانًا»** .

وهذا صريح في أن الله عز جل خلق عباده علىٰ الحنيفية ـ حنفاء كلهم ـ وأن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك .

قال المفسرون : الحنيف في كلام العرب : المستقيم المخلص . قال ابن عبدالبر : وهذا كله يدل علىٰ أن الحنيفية : الإسلام ، وهو أمر واضح لا

خفاء فيه . وأيضًا فإن هذا تفسير السلف . قال ابن جرير : وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل .

ولهذا قال علماء من السلف والخلف في آية الأعراف : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف : ١٧٢] : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد .

الحنيفية إذن من موجبات الفطرة ومقتضياتها ، وأصل أعمال الحنيفية المحبة والخضوع والإخلاص لله سبحانه وتعالى ، فإذا كانت المحبة لله جبلية فطرية ، فشرطها ـ وهو المعرفة ـ أيضًا جبلي فطري !

والمراد أن كل مولود فإنه يولد على محبته لفاطره وإقراره له بربوبيته وادعائه له بالعبودية ، فلو خلي وعدم المعارض ، لم يعدل عن ذلك إلى غيره .

تمامًا كما يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة ، فيشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه . وهذا من قوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه : ٥٠] ، وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى : ٢ ، ٣] .

ولهذا شبهت الفطرة باللبن بل كانت إياه في التأويل للرؤيا . ولما عُرض على النبي ﷺ ليلة الإسراء اللبن والخمر ، أخذ اللبن ، فقيل له أخذت الفطرة ؛ ولو أخذت الخمر لغوت أمتك . فمناسبة اللبن لبدن المولود وصلاحه عليه دون غيره ، كمناسبة الفطرة لقلبه وصلاحه بها دون غيرها .

فهو سبحانه وتعالىٰ خلق المخلوق مهتديًا إلىٰ جلب ما ينفعه ودفع ما يضره .

ففي الفطرة قوة تميل بصاحبها إلىٰ المعرفة والإيمان؛ معرفة الخالق والإقرار به ومحبته وإخلاص الدين له؛ كما أن في البدن السليم قوة يحب بها الأغذية النافعة .

والله سبحانه وتعالىٰ خلق عباده علىٰ هذه الفطرة : فما كان حقًا موجوداً صدقت به الفطرة؛ وما كان حقًا نافعًا عرفته الفطرة وأحبته واطمأنت إليه، وذلك هو المعروف. وما كان باطلاً معدومًا كذبت به الفطرة، فأبغضته وأنكرته وذلك هو المنكر. قال تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. أي يأمرهم بما هو معروف حسنه وصلاحه ونفعه لأصحاب الفطر السليمة؛ وينهاهم عما تستنكره هذه الفطر لقبحه وفساده وضرره.

الفطرة إذن قوة غريزية جبلية تتضمن معرفة الحق ومحبته؛ بل ومعرفة كل نافع ملائم ومحبته. وكذلك إنكار الباطل وبغضه، بل إنكار كل ضار منافي وبغضه .

وهذه المعرفة للحق ومحبته لا يشترط فيها وجود دليل أو شخص منفصل خارج الفطرة؛ وإن كان وجوده قد يذكّر ويحرك، كما لو خوطب الجائع أو الظمآن بوصف طعام أو شراب، أو خوطب المغتلم بوصف النساء، فإن هذا مما يذكره ويحركه ويثير شهوته الكامنة بالقوة في نفسه، لا أنه يحدث أو ينشئ له الشهوة فيجعلها موجودة بعد أن كانت معدومة.

فكذلك الأسباب الخارجة عن الفطرة، لا يتوقف عليها وجود ما في الفطرة من الشعور بالخالق ومحبته وتعظيمه والخضوع له؛ وإن كان ذلك

مذكرًا ومحركًا ومنبهًا، وقد يكون أحيانًا مزيلاً للعارض المانع .

وإن كانت المعرفة الفطرية للخالق والإنابة إليه متوقفة على أدلة من خارج الفطرة، لما كان هناك وجه إذن لمدح الفطرة، بينما النصوص الشرعية كلها تمدح الفطرة وتذم من يفسدها، مما يثبت أن الفطرة بذاتها مستلزمة للمعرفة والإيمان موجبة لهما إلا أن يعارضها معارض .

ولهذا لم يذكر النبي ﷺ لوجود الفطرة شرطًا[1] بل ذكر ما يمنع موجبها، حيث قال: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه». فحصول هذا التهويد والتنصير والتمجيس موقوف على أسباب خارجة عن الفطرة. وحصول الحنيفية والإخلاص ومعرفة الرب والخضوع له لا يتوقف أصله على غير الفطرة.

فالطفل الذي يختار مص اللبن بنفسه، وإذا مكن من الثدي وُجدت الرضاعة لا محالة؛ وارتضاعه ضروري إذا لم يوجد معارض، وهو مولود على أن يرضع، فكذلك هو مولود على أن يعرف الله؛ والمعرفة ضرورية لا محالة إذا لم يوجد معارض. فتبين أن النفس كما أن فيها قوة تقتضي بنفسها شرب اللبن الذي فطرت على محبته وطلبه؛ فكذلك فيها قوة موجبة لحب الله والذل له وإخلاص الدين له، وأنها موجبة لمقتضاها إذا سلمت من المعارض. وأن ذلك لا يتوقف على سبب خارج عنها (*).

* * *

(١) إذ لم يقل مثلاً: « فأبواه يسلمانه » .

(*) شفاء العليل ص٢٨٣ .

الفصل الخامس

الرسل يذكرون العباد بما هو مركوز في فطرتهم ويدعونهم إلى موجب هذه الفطرة تفصيلاً وتكميلاً

إذا ثبت ما ذكرنا سابقًا؛ ثبت أن نفس الفطرة مقتضية لمعرفته سبحانه وتعالىٰ ومحبته وتعظيمه والخضوع له، من غير تعليم ولا دعاء إلىٰ ذلك؛ وأن الأسباب الخارجة عن الفطرة لا يعدو دورها التنبيه والتحريك والتذكير.

ولذلك سمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ما كمل به موجبات الفطرة بذكر وذكرىٰ. وجعل رسوله مذكرًا.

فقال تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية: ٢١]. وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾ [الأعلى: ٩]. وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]. وقال: ﴿ ..وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان ٥٨].

وهذا كثير في القرآن يخبر أن كتابه ورسوله مذكر لهم بما هو مركوز في فطرهم، من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله والخضوع له والإخلاص له، ومحبة شرعه الذي هو العدل المحض وإيثاره علىٰ ما سواه.

والمقصود أن الله فطر عباده علىٰ فطرة فيها بذاتها الإقرار به سبحانه ومحبته والإخلاص له والإنابة إليه وإجلاله وتعظيمه؛ وأن الشخص الخارج

عن هذه الفطرة لا يُحدث فيها ذلك ويجعله فيها بعد أن لم يكن؛ وإنما لا يعدو دوره أن يذكرها بما هو فيها أصلاً، وينبهها عليه، ويحركها له، ويفصله ويبينه لها، ويعرفها الأسباب المقوية، والأسباب المعارضة له والمانعة من كماله، فهو يذكر النفس ويحركها لما هو مركوز فيها بالقوة.

فالفطر مركوز فيها كل هذا الحق؛ فهي تعرفه وتشعر به مجملاً، ومفصلاً بعض التفصيل.

فجاءت الرسل تذكرها بذلك، وتنبهها عليه، وتفصله وتبينه لها، وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة، المانعة من اقتضائها أثرها.

وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل؛ فإنها أمر بمعروف ونهي عن منكر، وإباحة طيب وتحريم خبيث، وأمر بعدل ونهي عن ظلم. وهذا كله مركوز في الفطرة، وكمال تفصيله وتبيينه موقوف على الرسل.

وهكذا باب التوحيد وإثبات الصفات، فإن في الفطرة الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق سبحانه وكذلك تنزيهه عن النقائص والعيوب هو أمر مستقر في فطر الخلائق، ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقف على الرسل.

إذ ليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه عن العيوب والنقائص، فجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها.

وكذلك في الفطر الإقرار بسعادة النفوس البشرية وشقاوتها وجزائها بكسبها في غير هذه الدار. وأما تفصيل ذلك الجزاء والسعادة والشقاوة فلا يعلم إلا بالرسل.

وكذلك فيها معرفة العدل ومحبته وإيثاره، وأما تفاصيل العدل الذي هو شرع الرّب تعالىٰ فلا تعلم إلا بالرسل.

ولذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، يدعون العباد إلىٰ موجب هذه الفطرة، فالرسل تذكر بما في الفطرة وتفصله وتبينه، فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة عن متقضاها، استجابت لدعوة الرسل ولابد، بما فيها من المقتضىٰ لذلك، إذ الشرعة مطابقة للفطرة، يتصادقان ولا يتعارضان(*).

* * *

(*) شفاء العليل ص٢٨٣.

الباب الثاني

العـــــقــــل

« إن أصل العلوم العقليـة النظرية اعتبـار الشيء بمثله، وأن حكمه حكم مـثله، وهذا هو الميزان ـ أعـظم صفـات العقل ـ الذي يعـرف به التماثل والاختلاف ويميز به بين الحـسن والقبيح . فمن جوّز أن يكـون الشيئان متماثلين من كل وجه، وأن العـقل يجزم بثبوت أحدهما وانتفاء الآخر، كان هذا قدحًا في أصل كل علم وعقل .. ».

* * * * *

الفصل الأول

العقل هو الصفة أو الغريزة التي يعلم بها الإنسان ويميز بين ما ينفعه وما يضره

العقل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين رضي الله عنهم أجمعين، هو: أمر يقوم بالعاقل سواءً سمى عرضًا أو صفة. ليس هو عينًا قائمة بنفسها كما يذهب إلى ذلك المتفلسفة ويسمونه جوهرًا أو جسمًا أو غير ذلك.

فإسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة. وهو الذي يسمى عرضًا قائمًا بالعاقل.

وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿..قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾ [آل عمران: ١١٨]. ونحو ذلك مما يدل على أن العقل مصدر: عقل، يعقل، عقلاً.

وقد يراد بالعقل: نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار. كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وغيرهما: إن العقل غريزة.

وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء، كما أن في العين قوة بها يبصر؛ وفي اللسان قوة بها يذوق، وفي الجلد قوة بها يلمس، عند جمهور العقلاء.

والعقل المشروط في التكليف لابد أن يكون علومًا بديهية أو ضرورية

يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره. فالمجنون الذي لا يميز مثلاً بين النقود وغيرها، ولا بين أيام الأسبوع، ولا يفقه ما يقال له من الكلام، فليس بعاقل. أما من فهم الكلام وميز بين ما ينفعه وما يضره؛ فهو عاقل.

ومن هنا قالت طائفة: إن جميع العلوم ضرورية ـ فالعلم الضروري هو الذي يلزم نفس العبد لزومًا لا يمكنه الانفكاك عنه ـ لأنه حتىٰ العلم النظري الكسبي لابد أن يرد إلىٰ مقدمات ضرورية أو بديهية لا تحتاج بذاتها إلىٰ دليل أو برهان لكيلا يؤدي ذلك إلىٰ الدور أو التسلسل.

فحتىٰ القائس، إن لم يحصل له العلم الضروري ابتداءً، وإلا فلابد أن يبني نظره وقياسه علىٰ مقدمات ضرورية ثم حينئذ يحصل له العلم.

والمرجع في كونه علمًا ضروريًا هو أنه يعجز عن دفعه عن نفسه؛ إذ إن من نظر في دليل يفيد العلم وجد نفسه عالمة عند علمه بذلك الدليل، كما يجد نفسه رائية عند التراثي للشمس أو الهلال أو غير ذلك، وكما يجد نفسه سامعة عند الاستماع للصوت.

فالعلم يحصل في النفس كما تحصل سائر الإدراكات بما يجعله الله من الأسباب، إذ حصول العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم، فكما أن الجسم يحس بالطعام والشراب، فكذلك القلوب تحس بما ينزل إليها من العلوم، فتشعر به وتعرفه وتجده في نفسها بغير واسطة أحد.

ومن الناس من يقول: العقل هو علوم ضرورية. ومنهم من يقول: العقل هوالعمل بموجب تلك العلوم. والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا.

فالعقل الذي يدخل صاحبه الجنة أفضل من العقل الذي لا يدخل صاحبه الجنة؛ كمن يعلم ولا يعمل، ولهذا قال أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ولهذا كان اسم العقل له تعلق بالدماغ وبالقلب، فمبدأ التصور في الدماغ. وأصل الإرادة في القلب، وكلاهما لابد منه للعمل الاختياري(*).



(*) الفتاوىٰ جـ٢ ص٦٧ ـ جـ٤ ص٢٩ ـ جـ٩ ص٢٧١، ٢٨٦، ٣٠٣.

الفصل الثاني

العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال لكنه ليس مستقلاً بذلك

كثير من المتكلمة يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويفردونه؛ ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له. والمعقولات عندهم هي الأصول الكلية الأولية المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن.

وكثيرٌ من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه؛ ويرون أن الأحوال العالية، والمقامات الرفيعة، لا تحصل إلا مع عدمه. ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل. ويمدحون السكر والجنون والوله؛ وأموراً من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز.

فالمسرفون في العقل قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم؛ اعتقدوها حقًا وهي باطل؛ وعارضوا بها النبوات وما جاءت به.

والمعرضون عن العقل صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم.

وقد يقترب من كلٍ من الطائفتين بعض أهل الحديث؛ تارة بعزل العقل عن محل ولايته، وتارة بمعارضة السنن به.

فهؤلاء صدقوه، وعظموه، وأسرفوا فيه، حتى جعلوه هو الميزان وهو الغاية؛ وأولئك صدقوا الوجد، وعظموه، وأسرفوا فيه حتى جعلوه هو

الميزان وهو الغاية .

وكلا الطرفين مذموم؛ فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة .

فالعقل إن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها ـ فالرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه ـ وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أموراً حيوانية ـ قد يكون فيها محبة ووجد وذوق ـ كما يحصل للبهيمة .

بل العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال؛ وبه يكمل العلم والعمل؛ لكنه ليس مستقلاً بذلك .

ولذلك كان العقل الناظر في المسألة محتاجًا إلى شيئين : إلى أن يظفر بالدليل الهادي؛ وإلى أن يهتدي به وينتفع .

والدليل الهادي على العموم والإطلاق هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ . والاهتداء والانتفاع بالدليل لا يتحقق إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

فقد ينظر المرء في دليل مضل ـ وهو يعتقد صحته ـ فيصير في قلبه بذلك اعتقاد فاسد؛ وهو غالب شبهات أهل الباطل المخالفين للكتاب والسنة من المتفلسفة والمتكلمين ونحوهم .

وقد ينظر في الدليل الهادي؛ ولكنه قد لا يفهمه؛ أو يحرف الكلم عن مواضعه فيضل به كذلك .

ولذلك فقد أمر الشارع المرء بما يوجب أن ينزل على قلبه الأسباب الهادية ويصرف عنه الأسباب المعوقة . وهو ذكر الله تعالى .

فالله سبحانه وتعالىٰ هو رب كل شيء ومليكه، وهو معلم كل علم وواهبه؛ فكما أن نفسه أصل لكل شيء موجود؛ فذكره والعلم به أصل لكل علم وإيمان .

وحقيقة الأمر : أن العبد مفتقر إلىٰ من يسأله العلم والهدىٰ ـ طالب سائل ـ فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويدله .

كما قال سبحانه وتعالىٰ : «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**» . وكما كان النبي ﷺ يقول : «**اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(*) .

* * *

(*) الفتاوىٰ جـ٣ ص٣٣٨ـ جـ٢ ص٣٤ .

الفصل الثالث

الشرع جاء للناس بالأدلة والأقيسة العقلية الصحيحة التي يحتاجون إليها لمعرفة المطالب الإلهية ومسائل أصول الدين

أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها قولاً، أو قولاً وعملاً؛ كمسائل التوحيد، والصفات، والقدر، والنبوة، والمعاد. أو دلائل هذه المسائل.

(أما القسم الأول) فكل ما يحتاج الناس إلىٰ معرفته، واعتقاده، والتصديق به؛ من هذه المسائل؛ فقد بينه الله ورسوله ﷺ، بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر .

(وأما القسم الثاني) وهو دلائل هذه المسائل الأصولية؛ فالأمر ما عليه سلف الأمة وأئمتها ـ أهل العلم والإيمان ـ من أن الله سبحانه وتعالىٰ بين من الأدلة العقلية ما يحتاج إليها في العلم بذلك.

فالرسول ﷺ أول ما أنزل عليه بيان أصول الدين: وهي الأدلة العقلية الدالة علىٰ ثبوت الصانع وتوحيده، وصدق رسوله ﷺ وعلىٰ المعاد إمكانًا ووقوعًا .

والرسول ﷺ بيّن الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس إلىٰ دينهم، وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

فهو ﷺ كما بين جميع الدين، أصوله وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله ـ فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان ـ فإنه كذلك قد بين

الأدلة والبراهين والآيات الدالة على هذا الحق أحسن بيان .

فقد دل الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينة التي بها يعلمون المطالب الإلهية ، وبها يعلمون إثبات ربوبية الله ووحدانيته وصفاته ، وصدق رسله ؛ والمعاد ؛ وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته بالأدلة العقلية .

بل وما يمكن بيانه بالأدلة العقلية ـ وإن كان لا يحتاج إليها ـ قد بينها أيضًا بأدلتها العقلية ، فإن كثيرًا من الأمور تعرف بالخبر الصادق ؛ ومع هذا فالرسول ﷺ بيّن الأدلة العقلية الدالة عليها ؛ فجمع بين الطريقين : السمعي والعقلي .

إذن ما دل عليه السمع من مسائل أصول الدين يعلم «بالعقل» أيضًا ؛ والقرآن يبين ما يستدل به العقل ، ويرشد إليه ، وينبه عليه ، كما ذكر الله ذلك في غير موضع .

فإنه سبحانه وتعالى بيّن من الآيات الدالة عليه ، وعلى وحدانيته ، وقدرته وعلمه ، وغير ذلك ؛ ما أرشد العباد إليه ودلهم عليه . كما بين على نبوة أنبيائه ؛ وما دل على المعاد وإمكانه ووقوعه .

فهذه المطالب هي شرعية من جهتين :

من جهة أن الشارع أخبر بها .

ومن جهة أنه بيّن الأدلة العقلية التي يستدل بها عليها .

فالأمثال المضروبة في القرآن والتي يذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه هي «أقيسة عقلية» ؛ وهي عقلية من جهة أنها تعلم بالعقل أيضًا ؛ وهي شرعية من جهة أن الشرع دل عليها .

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨]. وقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر: ٢١]. وقال: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان: ٣٣].

فالقرآن بيّن من الدلائل العقلية؛ التي تعلم بها المطالب الدينية؛ ما يجعل هذه الدلائل والمطالب: شرعية عقلية.

فمن صفات الله تعالىٰ التي دل عليها الشرع ما يعلم بالعقل: كما يعلم أنه عالم وأنه قادر، وأنه حيّ. كما أرشد إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]؟!

وقد اتفق النظار من مثبتة الصفات علىٰ أنه يعلم بالعقل عند المحققين أنه: حيّ، عليم، قدير، مريد وكذلك السمع والبصر والكلام؛ وكذلك الحب والرضا والغضب، يمكن إثباته بالعقل. وكذلك علوه علىٰ مخلوقاته ومباينته لها مما يعلم بالعقل. وكذلك إمكان الرؤية يثبت بالعقل.

والمقصود أن دلالة القرآن علىٰ الأمور نوعان:

(أحدهما) خبر الله الصادق. فما أخبر الله ورسوله به فهو حق كما أخبر الله به.

(والثاني) دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة علىٰ المطلوب فهي دلالة شرعية عقلية:

فهي «شرعية» لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها.

و«عقلية» لأنها تعلم صحتها بالعقل.

فإذا أخبر الله بالشيء، ودل عليه بالدلالات العقلية، صار مدلولاً عليه بخبره؛ ومدلولاً عليه بدليله العقلي الذي يعلم به؛ فيصير ثابتًا بالسمع والعقل؛ وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمىٰ «الدلالة الشرعية».

فمثلاً الإقرار بالخالق وكماله يكون فطريًا ضروريًا في حق من سلمت فطرته؛ وإن كان ذلك تقوم عليه الأدلة العقلية الكثيرة التي قد يحتاج إليها كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها؛ تلك الأدلة قد دل عليها القرآن بعبارات متنوعة، دالة علىٰ معانٍ متضمنة لهذا المعنىٰ.

فالقرآن قد دل علىٰ الأدلة العقلية التي بها يُعرف الصانع وتوحيده وصفاته وصدق رسله؛ وبها يعرف إمكان المعاد ووقوعه.

ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح مالا يوجد مثله في كلام أحد من الناس؛ بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية، يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها.

فالعقليات الصريحة؛ إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحًا؛ لم تكن إلا حقًا، لا تناقض شيئًا مما قاله الرسول ﷺ، فالرسل جاءوا بما يعجز العقل عن دركه؛ لم تأت بما يُعلم بالعقل امتناعه.

فليس تعليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقصوراً علىٰ مجرد الخبر ـ كما يظنه كثير من الناس ـ بل هم بيّنوا من البراهين العقلية التي بها تعلم العلوم الإلهية مالا يوجد عن غيرهم البتة. فتعليمهم صلوات الله عليهم جامع للأدلة العقلية والسمعية جميعًا (*).

(*) الفتاوىٰ جـ٣ ص٨٨، ٢٩٥ ـ جـ٦ ص٧١ ـ جـ٨ ص٤٣١ ـ جـ٩ ص١٩، ٢٢٣ ـ جـ١٢ ص٨١ ـ جـ١٦ ص٢٥١ ـ جـ١٧ ص٣٠٨.

الفصل الرابع

العقل والسمع والبصر هي أمهات ما يُنال به العلم ويدرك واجتماع الحس والعقل هو الطريق إلى إدراك الحقائق المعينة ومعرفة حكمها العام

إن الله سبحانه وتعالى خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء، كما خلق له العين يرى بها الأشياء؛ والأذن يسمع بها الأشياء، كما خلق له سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال.

فإذا استعمل الإنسان العضو فيما خلق له وأعد لأجله فذلك هو الحق القائم والعدل الذي قامت به السموات والأرض؛ وكان ذلك خيراً وصلاحًا لذلك العضو ولصاحبه، وللشيء الذي استعمل فيه .

وإذا لم يستعمل العضو في حقه، بل ترك بطالاً؛ فذلك خسران، وصاحبه مغبون. وإن استعمل في خلاف ما خلق له؛ فهو الضلال والهلاك، وصاحبه من الذين بدلوا نعمة الله كفراً .

فالفكر للقلب، كالإصغاء للأذن؛ ومثله نظر العينين؛ وإذا علم ما نظر فيه فذاك مطلوبه، كما أن الأذن كذلك إذا سمعت ما أصغت إليه، أو العين إذا بصرت ما نظرت إليه .

وهذه الأعضاء الثلاثة هي أمهات ما ينال به العلم ويدرك. قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾[النحل: ٧٨]. وقال: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ

فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ⑨﴾ [السجدة: ١٧٩].

وقال عن الكافرين: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑦﴾ [البقرة: ٧]، وقال فيما لكل عضو من هذه الأعضاء من العمل والقوة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب؛ فالقلب يعقل الأشياء بنفسه، إذ كان العلم هو غذاؤه وخاصيته؛ وإنما سائر الأعضاء حجبة له توصل من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه.

فالأذن مثلاً تحمل الكلام المشتمل على العلم إلى القلب، فهي بنفسها إنما تحمل القول والكلام، فإذا وصل ذلك إلى القلب أخذ منه ما فيه من العلم.

حتى إن من فقد شيئًا من هذه الأعضاء، فإنه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطة فيه.

فمدار الأمر في تحصيل الإدراك الكامل والعلوم على القلب.

وأول علوم القلب هي البديهيات؛ وهي العلوم الأولية التي يجعلها الله في النفوس ابتداءً بلا واسطة، مثل الحساب: وهي كالعلم بأن الواحد نصف الإثنين؛ وكالعلم بأن الأشياء المساوية لشيء واحد هي متساوية في أنفسها.

وأما العقل بمعنى: عقل الأمور العامة التي أفرادها موجودة في الخارج؛

فهذا لا يحصل بغير حس؛ إذ هذا لا يتصور؛ لأنك إذا حكمت على موجود في الخارج لم يكن ذلك إلا بواسطة الحس.

فإذا اجتمع الحس والعقل - كاجتماع البصر والعقل مثلاً - أمكن للشخص من جهة أن يدرك الحقائق الموجودة المعينة؛ وأمكن له من جهة أخرى أن يعقل حكمها العام الذي يندرج فيه أمثالها لا أضدادها؛ ويعلم الجمع والفرق - أي الجمع بين المتشابهات والفرق بين المختلفات - وهذا هو «اعتبار العقل وقياسه».

فمثلاً المعدود لا تدرك إلا بالحس. والعدد المجرد يعقل بالقلب. وبعقل القلب والحس يعلم العدد والمعدود جميعًا فبمجموعهما يتم البرهان.

كما يعلم بالحس أن مع هذا ألف درهم، ومع هذا ألفان؛ ويعلم بالعقل أن الإثنين أكثر من الواحد، فيعلم أن مال هذا أكثر.

وكما تعلم بالحس أن هذا مثل هذا، وتعلم أن هذا من نعته كيت وكيت، فتعلم أن الآخر مثله؛ وتعلم أن حكم الشيء حكم مثله.

وكما تعلم أن زيداً أكبر من عمرو، وعمرو أكبر من خالد فتعلم أن زيداً أكبر من خالد.

وكذلك إذا علم الإنسان أن هذا الدينار مثل هذا؛ وهذا الدرهم مثل هذا؛ وأن هذه الحنطة والشعير مثل هذه؛ ثم علم شيئًا من صفات أحدهما وأحكامه الطبيعية: مثل الاغتذاء والانتفاع؛ أو العادية: مثل القيمة والسعر، أو الشرعية مثل الحل والحرمة - علم أن حكم الآخر مثله.

فهذه الأقيسة التمثيلية تفيد اليقين بلا ريب، فإن الناس بمجرد علمهم

بالتماثل يبادرون إلى التسوية في الحكم؛ لأن نفس العلم بالتماثل يوجب ذلك بالبديهة العقلية .

فكما علم بالبديهة العقلية أن الواحد نصف الأثنين؛ علم بها أن حكم الشيء حكم مثله ، وأن الواحد مثل الواحد ، كما علم أن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية .

فالعلم بأن المثلين سواء؛ وأن الأكثر والأكبر أعظم وأرجح ، يعلم ببديهة العقل؛ والعلم بالتماثل والاختلاف ـ في الصفة أو القدر ـ في الأعيان يعلم بالحس(*) .

* * *

(*) الفتاوى جـ٣ ص٢٩٥ ـ جـ٩ ص١٩ ، ٧٠ ، ٢٢٣ .

الفصل الخامس

الشرع يعتمد على البديهيات العقلية وعلى الحواس معًا ليبني عليها منهجه في الاستدلال بضرب الأمثلة أو الأقيسة العقلية التمثيلية

من البديهيات المعلومة بضرورة العقل أن المحدَث لابد له من محدِث؛ وأنه من الممتنع - بضرورة العقل أيضًا - تسلسل المحدَثات إلى غير نهاية - وهو ما يسمى بتسلسل المؤثرات والعلل والفاعلية - بل هذا ممتنع باتفاق العقلاء؛ بديهي ضروري في العقول .

بل لابد في الوجود من موجود واجب بنفسه قديم أزلي محدِث للحوادث، فإن هذا معلوم بالفطرة، والضرورة، والبراهين اليقينية؛ فالإقرار بالصانع فطري ضروري؛ مع كثرة دلائله وبراهينه .

إذ من المعلوم بالمشاهدة، والعقل؛ وجود موجودات . ومن المعلوم أيضًا أن منها ما هو حادث بعد أن لم يكن، كما نعلم نحن أننا حادثون بعد عدمنا؛ وأن السحاب حادث، والمطر، والنبات حادث، والدواب حادثة، وأمثال ذلك من الآيات التي نبه الله تعالى عليها بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ [البقرة: ١٦٤].

فهذه الحوادث المشهودة يمتنع وجودها بنفسها، لأنها كانت معدومة ثم وجدت؛ فدل وجودها بعد عدمها على أنها يمكن وجودها ويمكن عدمها ـ فإن كليهما قد تحقق فيها ـ فعلم بالضرورة اشتمال الوجود على موجود محدَث ممكن .

والموجود المحدَث الممكن لابد له من موجد قديم محدِث واجب بنفسه، فإنه يمتنع وجود المحدَث بنفسه؛ كما يمتنع أن يخلق الإنسان نفسه . وهذا من أظهر المعارف الضرورية .

ولهذا قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥] ؟! وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء أساري بدر، قال : وجدت النبي ﷺ يقرأ في المغرب «بالطور». قال : فلما سمعت هذه الآية : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ؟! أحسست بفؤادي قد انصدع .

وذلك أن هذا تقسيم حاصر، ذكره الله تعالى بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها .

يقول : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ ؟! أي من غير خالق خلقهم ؟!

﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي أم هم خلقوا أنفسهم؟! وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل .

فإذا لم يكونوا خُلقوا من غير خالق؛ ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن لهم خالقًا خلقهم سبحانه وتعالى .

فمن المعلوم بالضرورة إذن أن الحادث بعد عدمه لابد له من محدِث . وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة حتى للصبيان .

فإن الصبي لو ضربه ضارب وهو غافل لا يبصره، لقال : من ضربني؟

فلو قيل له: لم يضربك أحد. لم يقبل عقله أن تكون الضربة حدثت من غير محدِث، بل يعلم أنه لابد للحادث من محدِث. فإذا قيل: فلان ضربك. بكىٰ حتىٰ يضرب ضاربه. فكان في فطرته: الإقرار بالصانع؛ وبالشرع الذي مبناه علىٰ العدل.

ومن البديهيات كذلك: امتناع دفع النقيضين وامتناع اجتماعهما؛ فإن النقيضين لا يمكن رفعهما؛ بل في نفس الأمر لابد أن يكون الشيء ـ أي شيء كان ـ إما موجوداً وإما معدوماً ـ إما أن يكون وإما أن لا يكون؛ وليس بين النفي والإثبات واسطة أصلاً.

ومن البديهيات أيضًا افتقار المعلول إلىٰ العلة والمسَّبب إلىٰ سبب. وجماهير المسلمين يقرون بالأسباب التي جعلها الله أسبابًا في خلقه وأمره؛ ويقرون بحكمة الله التي يريدها في خلقه وأمره؛ ويقولون كما قال الله في القرآن حيث قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقال: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]. ومثل هذا كثير من الكتاب والسنة.

وجمهور المسلمين علىٰ ذلك؛ يقولون: إن هذا فُعِل بهذا، لا يقولون كما يقول نفاة الأسباب: فُعِل عندها لا بها!

إذ هناك من الناس من ينكر القوىٰ والطبائع. وهؤلاء المنكرون للقوىٰ والطبائع ينكرون الأسباب؛ ويقولون: إن الله يفعل عندها لا بها. فيقولون إن الله لا يُشبع بالخبز، ولا يروىٰ بالماء، ولا يُنبت الزرع بالماء؛ بل يفعل عنده لا به!

وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة وإجماع السلف، مع مخالفة صريح العقل والحس. فإن الله تعالىٰ قال في كتابه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:٥٧] .

فأخبر سبحانه أنه ينزل الماء بالسحاب، ويخرج الثمر بالماء. ومثل هذا في القرآن كثير .

والناس يعلمون بحسهم وعقلهم أن بعض الأشياء سبب لبعض؛ كما يعلمون أن الشبع يحصل بالأكل لا بالعد؛ ويحصل بأكل الطعام لا بأكل الحصى، وأن الماء سبب لحياة النبات والحيوان، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وأن الحيوان يروى بشرب الماء لا بالمشي. ومثل هذا كثير.

فالذي يدل عليه المعقول الصريح؛ ويقرُّ به عامة العقلاء؛ ودل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة : أن المؤثر التام يستلزم وقوع أثره عقب تأثره التام؛ لا يقترن به ولا يتراخى عنه .

كما إذا طلقت المرأة فطلقت؛ وأعتق العبد فعتق، وكسرت الإناء فانكسر، وقطعت الحبل فانقطع. فوقوع الطلاق والعتق ليس مقارنًا لنفس التطليق والإعتاق بحيث يكون معه؛ ولا هو أيضًا متراخ عنه. بل يكون عقبه متصلاً به.

وكما اعتمد الشرع على بديهيات العقل؛ فإنه اعتمد كذلك على الوجود الخارجي المحسوس لضرب الأمثال التي يستدل بها على حقائق الشرع؛ إذ كان الحس هو طريق العقل للوصول إلى الأحكام العملية اليقينة .

إذ ليس كل ما يفرضه الذهن ـ وهو ما يسمى الإمكان الذهني ـ يمكن وجوده في الخارج؛ بل قد يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه ويقول: هذا ممكن. ولكنه لا يعلم إمكان وجوده فعلاً في الخارج ـ وهو ما

يسمىٰ الإمكان الخارجي ـ إلا إذا علم وجوده، أو وجود نظيره، أو وجود ما هو أبعد عن الوجود منه . فإذا كان الأبعد عن قبول الوجود موجوداً، ممكن الوجود، فالأقرب إلىٰ الوجود منه أولىٰ .

وهذه طريقة القرآن في بيان «إمكان المعاد»، فقد بيّن ذلك بهذه الطريقة . فإنه سبحانه لما أخبر بالمعاد؛ والعلم به تابع للعلم بإمكانه ـ إذ إن الممتنع لا يجوز أن يكون ـ بيّن سبحانه إمكانه أتم بيان .

ثم إنه إذا بيّن كون الشيء ممكنًا؛ فلابد من بيان قدرة الرَّب عليه؛ وإلا فمجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرَّب علىٰ ذلك .

فتارة يخبر سبحانه عمن أماتهم ثم أحياهم؛ كما أخبر عن قوم موسىٰ الذين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] . قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[البقرة:٥٥] . وعن ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. وعن ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وعن إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] القصة. وكما أخبر عن المسيح أنه كان يحيي الموتىٰ بإذن الله. وعن أصحاب الكهف أنهم بُعثوا بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين .

وتارة يستدل علىٰ ذلك بالنشأة الأولىٰ؛ فإن الإعادة أهون من الإبتداء؛ فبين سبحانه إمكان المعاد ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه . كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]،

وقال: ﴿إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ [الحج: ٥].
وقال: ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ [الإسراء: ٥١]. وكذلك ما ذكره في قوله: ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والأرض، فإن خلقها أعظم من إعادة الإنسان. كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ [غافر: ٥٧]، فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، والقدرة عليه أبلغ؛ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك. وذلك كقوله: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ [يس: ٨١]؛ وهذه مقدمة معلومة بالبديهة؛ ولهذا جاء فيها باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب.

فإن مبنى العقل على صحة الفطرة وسلامة الحواس؛ ومبنى السمع على تصديق الأنبياء صلوات الله عليهم. ثم الأنبياء صلوات الله عليهم كملوا للناس الأمرين؛ فدلوهم على الأدلة العقلية التي بها تعلم المطالب التي يمكنهم علمهم بها بالنظر والاستدلال؛ وأخبروهم مع ذلك من تفاصيل الغيب بما يعجزون عن معرفته بمجرد نظرهم واستدلالهم (*).

(*) الفتاوى جـ٢ ص٣٤ ـ جـ٣ ص٢٩٥ ـ جـ٥ ص٣٥٦ ـ جـ٨ ص٤٢٨ ـ جـ٩ ص٢٢٣، ٢٨٢ ـ جـ١٦ ص٤٤٤.

الفصل السادس

أعظم خواص العقل معرفة التماثل والاختلاف وهو «الميزان» الذي فطر الله عليه عباده والذي على أساسه ضرب للناس الأمثال في كتابه

اتفق العقلاء على أن ضرب المثل مما يعين على معرفة الكليات؛ وأنه ليس الحال إذا ذكر مع المثال كالحال إذا ذكر مجرداً عنه.

ومن تدبر جميع ما يتكلم فيه الناس من الكليات المعلومة بالعقل؛ في الطب والحساب والصناعات والتجارات وغير ذلك؛ وجد الأمر كذلك.

ولهذا قالوا: إن العقل تابع للحس. فإذا أدرك الحس الجزئيات؛ أدرك العقل فيها قدراً مشتركًا كليًا. فالكليات تقع في النفس بعد معرفة الجزئيات المعينة. فمعرفة الجزئيات المعينة من أعظم الأسباب في معرفة الكليات.

وهذه خاصة العقل؛ فإن خاصة العقل: معرفة الكليات بتوسط معرفة الجزئيات.

والإنسان قد ينكر أمراً، حتى يرى واحداً من جنسه، فيقر بالنوع، ويستفيد بذلك حكمًا كليًا.

ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء: ١٠٥]؛ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)﴾ [الشعراء: ١٢٣]؛ ونحو ذلك. وكل من هؤلاء إنما جاءه رسول واحد؛ ولكن كانوا مكذبين بجنس الرسل، ولم يكن تكذيبهم بالواحد بخصوصه.

فمن أعظم صفات العقل إذن : معرفة التماثل والاختلاف ، فإذا رأىٰ الشيئين المتماثلين ، علم أن هذا مثل هذا ، فجعل حكمها وحداً .

كما إذا رأىٰ الماء والماء ؛ والتراب والتراب ، والهواء والهواء ؛ ثم حكم علىٰ القدر المشترك ؛ فهذا «قياس الطرد» . وإذا رأىٰ المختلفين كالماء والتراب فرق بينهما ؛ وهذا «قياس العكس» .

وما أمر الله به من «الاعتبار» في كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس . فإنه لم أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم ؛ كان من الاعتبار أن يُعلم أن من فعل مثل ما فعلوا أصابه مثل ما أصابهم ؛ فيتقي تكذيب الرسل حذراً من العقوبة ؛ وهذا قياس الطرد . ويعلم أن من لم يكذب الرسل لا يصيبه ذلك ؛ وهذا قياس العكس . والاعتبار يكون بهذا وبهذا قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

ولقد قال تعالىٰ : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[الشورى :١٧] .

وقال : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥] .

و«الميزان» فسره السلف : بالعدل . وفسره بعضهم ، بما يوزن به . وهما متلازمان . وقد أخبر تعالىٰ أنه أنزل ذلك كما أنزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط . فما يُعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو «الميزان» وكذلك ما يُعرف به اختلاف المختلفات .

فإذا علمنا أن الله تعالىٰ حرّم الخمر ، لما ذكر من أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ؛ وتوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء ؛ ثم رأينا النبيذ يماثلها في ذلك ؛ كان القدر المشترك ـ الذي هو العلة ـ هو «الميزان» الذي أنزله الله في قلوبنا لنزن به هذا ونجعله مثل هذا . فلا نفرق بين المتماثلين .

فالقياس الصحيح هو من العدل الذي أمر الله به، و«الميزان» التي أنزلها الله مع الكتاب ميزان عادلة، تتضمن اعتبار الشيء بمثله؛ وخلافه؛ فتسوىٰ بين المتماثلين، وتفرق بين المختلفين؛ بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف .

فإذا قيل: إن كان هذا مما يُعرف بالعقل؛ فكيف جعله الله مما أرسل به الرسل؟

قيل: لأن الرسل ضربت للناس الأمثال العقلية التي يعرفون بها التماثل والاختلاف. فإن الرسل دلت الناس وأرشدتهم إلىٰ ما به يعرفون العدل، ويعرفون الأقيسة العقلية الصحيحة التي يستدل بها علىٰ المطالب الدينية .

فليست العلوم النبوية مقصورة علىٰ الخبر؛ بل الرسل صلوات الله عليهم بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الله علمًا وعملاً؛ وضربت الأمثال فكملت الفطرة بما نبهتها عليه وأرشدتها لما كانت الفطرة معرضة عنه؛ أو كانت الفطرة قد فسدت بما يحصل لها من الآراء والأهواء الفاسدة؛ فأزالت ذلك الفساد .

والقرآن والحديث مملؤان من هذا ؛ يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة، ويبين طريق التسوية بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين، وينكر علىٰ من يخرج عن ذلك .

كقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية [الجاثية: ٢١]. وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، أي هذا حكم جائر لا عادل. فإن فيه تسوية بين المختلفين .

ومن التسوية بين المتماثلين قوله تعالىٰ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣].

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ الآية [البقرة: ٢١٤].

والمقصود: التنبيه على أن «الميزان» العقلي حق كما ذكر الله في كتابه، وهي: الأقيسة الصحيحة المتضمنة للتسوية بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذا الميزان العقلي الفطري على قلوب عباده قبل أن يخلق اليونان، من عهد نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم.

ومازلت أمتنا ـ أهل الإسلام ـ يزنون بالموازين العقلية الفطرية ولم يسمعوا سلفًا باليونان ولا منطق اليونان، ولا يلتفتون إليه ولا إلى أهله، في موازينهم العقلية والشرعية.

فالفطرة إن كانت صحيحة وزنت بالميزان العقلي، وإن كانت بليدة أو فاسدة لم يزدها منطق اليونان إلا بلادة وفساداً.

ولقد كان من أسباب ضلال المتفلسفة والمتكلمين تقصيرهم أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول؛ وما كان عليه السلف؛ ومعرفة المعقول الصريح.

فإن هذا ـ ما ثبت عن الله ـ هو «الكتاب» وهذا ـ صريح المعقول ـ هو «الميزان». والله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل ﴿الكتاب والميزان﴾؛ فهما لا يتعارضان، بل «صريح المعقول» لا يمكن أن يناقض «صحيح المنقول»(*).

(*) الفتاوى جـ٩ ص٢٣٨.

الفصل السابع

تحسين العقل وتقبيحه أمر فطري مستقر في العقول؛ والشرع يعتمد عليه في إثبات أصول الدين وعرض أدلتها

أول ما أنزل على الرسول ﷺ بيان أصول الدين : وهي الأدلة العقلية الدالة على ثبوت الصانع وتوحيده؛ وصدق رسوله ﷺ وعلى المعاد إمكانًا ووقوعًا .

والرسول ﷺ بيّن الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس إلى دينهم، وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

ولكن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدين قاصرون أو مقصرون في معرفة ما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية .

فطائفة قد ابتدعت أصولا تخالف ما جاء به من هذا وهذا؛ وهذه هي أصول دينهم هم؛ لا أصول دينه هو ﷺ؛ وهي باطلة عقلاً وسمعًا .

وطائفة رأت أن ذلك بدعة فأعرضت عنه؛ وصاروا ينتسبون إلى السنة لسلامتهم من بدعة أولئك . ولكن هم مع ذلك لم يتبعوا السنة على وجهها؛ ولا قاموا بما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية .

وأما الأدلة العقلية، فقد لا يتصورون أنه أتى بالأصول العقلية الدالة على ما يخبر به؛ كالأدلة الدالة على التوحيد والصفات؛ ومنهم من يقر بأنه جاء بهذا مجملاً، ولا يعرف أدلته .

وكثير من هؤلاء يعتقدون أن في ذلك ما لا يجوز أن يعلم بالعقل؛

كالمعاد وحسن التوحيد والعدل والصدق؛ وقبح الشرك والظلم والكذب.

والقرآن يبين الأدلة العقلية الدالة على ذلك؛ وينكر على من لم يستدل بها ويبين أنه بالعقل يعرف: المعاد؛ وحسن عبادته وحده؛ وحسن شكره، وقبح الشرك وكفر نعمه.

وكثير من الناس يكون هذا في فطرته، وهو ينكر تحسين العقل وتقبيحه إذا صنف في أصول الدين ـ على طريقة النفاة الجبرية أتباع جهم ـ وهذا موجود في عامة ما يقوله المبطلون: يقولون بفطرتهم ما يناقض ما يقولون في اعتقادهم البدعي.

ولقد كان ابن الجوزي ينشد في مجلس وعظه البيتين المعروفين:

هب البعث لم تأتنا رسله وحاجمة النار لم تضرم

أليس من الواجب المستحق حياء العباد من المنعم

فقد صرح في هذا بأنه من الواجب المستحق حياء الخلق من الخالق المنعم. وهذا تصريح بأن شكره واجب مستحق؛ ولو لم يكن وعيد ولا رسالة أخبرت بجزاء. وهو يبين ثبوت الواجب والاستحقاق، وإن قدر أنه لا عذاب.

وهذا هو الصحيح؛ ونتيجة فعل المنهي: انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي كان فيها؛ وإن كان لا يعاقب بالضرر.

فإن الوجوب والاستحقاق يُعلم بالبديهة؛ فتارك الواجب وفاعل القبيح وإن لم يعذب بالآلام كالنار، فيسلب من النعم وأسبابه ما يكون جزاءه.

وهذا جزاء من لم يشكر النعمة بل كفرها؛ أن يسلبها. فالشكر قيد النعم؛ وهو موجب للمزيد. والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب؛ وقبل

ذلك ينقص النعمة ولا يزيد .

مع إنه لابد من إرسال رسول يستحق معه النعيم أو العذاب ، فإنه ما ثم دار إلا الجنة أو النار .

وأهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء هم في ضلال وجهل وشرك وشر ؛ ولكن لا يهلكهم الله ويعذبهم حتىٰ يرسل إليهم رسولاً .

والناس في مسألة «التحسين والتقبيح» علىٰ ثلاثة أقوال : طرفان ووسط .

وأما الوسط والصواب الذي عليه الحكماء والجمهور ؛ أنه قد ثبت بالخطاب والحكمة الحاصلة من الشرائع ثلاثةأنواع :

(أحدها) أن يكون الفعل مشتملاً علىٰ مصلحة أو مفسدة ، ولو لم يرد الشرع بذلك ، كما يعلم أن العدل مشتمل علىٰ مصلحة العالم ، والظلم يشتمل علىٰ فسادهم .

وهذا النوع هو حسن وقبيح ، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك ؛ لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن ؛ لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقبًا في الآخرة ، إذا لم يرد الشرع بذلك .

(النوع الثاني) أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسنًا وإذا نهىٰ عن شيء صار قبيحًا ، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع .

و(النوع الثالث) أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد ، هل يطيعه أم يعصيه ؛ ولا يكون المراد فعل المأمور به ، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه ، فلما أسلما وتله للجبين حصل المقصود ففداه بالذبح .

وأما الطرفان (فأولهما) المعتزلة؛ الذين لم يفهموا هذين النوعين الأخيرين بل غالوا في التحسين والتقبيح؛ وجعلوا الحسن والقبح صفات ذاتية لازمة لجميع الأفعال؛ وجعلوا الشرع كاشفًا عن تلك الصفات لا سببًا لشيء من الصفات مطلقًا .

وقالوا : إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث إليهم رسول . وهذا خلاف النصوص . قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء: ١٥]؛ وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ [القصص: ٥٩].

والنصوص الدالة على أن الله لا يعذب إلا بعد الرسالة كثيرة، ترد على من قال من أهل التحسين والتقبيح : إن الخلق يعذبون في الأرض بدون رسول أرسل إليهم .

وأما (الطرف الآخر) فالأشعرية؛ الذين ادعوا أن جميع الشريعة من قسم الامتحان؛ وأن الأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع .

بل الأفعال عندهم لم تشتمل على صفات هي أحكام، ولا على صفات هي علل للأحكام؛ بل القادر أمر بأحد المتماثلين دون الآخر؛ لمحض الإرادة؛ لا لحكمة؛ ولا لرعاية مصلحة في الخلق والأمر .

ويقولون إنه يجوز أن يأمر الله بالشرك بالله؛ وينهى عن عبادته وحده ويجوز أن يأمر بالظلم والفواحش، وينهى عن البر والتقوى!

والأحكام التي توصف بها الأحكام هي عندهم مجرد نسبة وإضافة

فقط؛ وليس المعروف في نفسه معروفًا عندهم؛ ولا المنكر في نفسه منكرًا عندهم. وذلك لا يقتضي عندهم كون الرب يحب المعروف ويبغض المنكر.

وهذا القول ولوازمه مخالف للكتاب والسنة ولإجماع السلف والفقهاء، مع مخالفته أيضًا للمعقول الصريح(*).

* * *

(*) الفتاوىٰ جـ٨ ص٤٣١ ـ جـ١٦ ص٢٥١ ـ جـ١٧ ص٣٠٨ .

الفصل الثامن

النقل والعقل يردان على منكري التحسين والتقبيح العقلي لأنهم يهدمون بذلك كل ثوابت الشرع والعقل

على قول نفاة التحسين والتقبيح لا يوجد في نفس الأمر لا منكر ولا معروف ولا طيب ولا خبيث، ولا فرق في التسوية بين المسلمين والمجرمين؛ وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار .

وعندهم تعلق الإرسال بالرسول كتعلق الخطاب بالأفعال، لا يستلزم ثبوت صفة لا قبل التعلق ولا بعده. وكل هذا خلاف المنصوص والمعقول.

فإن الله نزه نفسه عن الفحشاء، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. كما نزه نفسه عن التسوية بين الخير والشر؛ فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾ [الجاثية: ٢١]. وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ [ص: ٢٨].

ولذلك فإن الفقهاء وجمهور المسلمين يقولون: إن الله حرم المحرمات فحرمت؛ وأوجب الواجبات فوجبت. فمعنا شيئان: (الأول) إيجاب وتحريم وذلك كلام الله وخطابه. (والثاني) وجوب وحرمة؛ وذلك صفة الفعل.

والله تعالىٰ عليم حكيم؛ علم بما تتضمنه الأحكام من المصالح، فأمر ونهىٰ لعلمه بما في الأمر والنهي والمأمور والمحظور من مصالح العباد ومفاسدهم وهو أثبت حكم الفعل وأما صفته فقد تكون ثابتة بدون الخطاب.

وإلا فأي معنىٰ لقوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؟ وهل حاصل ذلك[١] زائد علىٰ أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عما ينهاهم عنه؟ وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء، فضلاً عن كلام رب العالمين.

فالآية دلت علىٰ أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر؛ فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم، ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول.

كما قال بعض الأعراب وقد سئل: بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهىٰ عنه؛ ولا نهىٰ عن شيء فقال ليته أمر به.

فقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح ما نهىٰ عنه؛ حتىٰ كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته. فاستدل علىٰ صحة نبوته بنفس دعوته ودينه. ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته .

ومن هذا أحد أعلام نبوته التي احتج الله بها علىٰ أهل الكتاب في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ فهذا صريح في أن الحلال كان طيبًا قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه .

---

(١) أي علىٰ قول نفاة التحسين والتقبيح.

ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [القصص :٤٧] ؛ فأخبر تعالىٰ أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة ، وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتابًا ، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة ، بحيث استحقوا أن يصيبوا بها المصيبة ؛ ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل .

وهذا هو فصل الخطاب . وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم : أن القبح ثابت للفعل في نفسه ، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة الرسالية .

ومن هذا قوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، أي لو كان في السموات والأرض آلهة تعبد غير الله لفسدتا وبطلتا . ولم يقل أرباب ؛ بل قال آلهة ، والإله هو المعبود المألوه ، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلاً أن يشرع الله عبادة غيره أبدًا ، وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض .

فقبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول ؛ وإن لم يرد النبي عنه شرع ؛ بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق ، وأنه من المحال أن يشرعه الله قط .

فصلاح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود ، وفساده وهلاكه في أن

يعبد معه غيره. ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه؛ بل هو المنزه عن ذلك.

والأدلة في القرآن أكثر من أن تذكر هنا، وطريقة القرآن صريحة في أنه سبحانه يحتج على فساد مذهب من عبد غيره بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول؛ ويجعل ما ركبه في العقول من حسن عبادة الخالق وحده، وقبح عبادة غيره، من أعظم الأدلة على ذلك .

ولولا أنه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره، وقبح عبادة غيره، وترك شركه، لما احتج عليهم بذلك أصلاً.

وكذلك الرسالة والمعاد. قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة ٣٦:] أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب. فأنكر سبحانه على من زعم أنه يترك سدى إنكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه، وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلى أحكم الحاكمين.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] . فنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه يتعالى عنه ولا يليق به لقبحه ولمنافاته لحكمته وملكه وإلهيته .

أفلا ترى كيف ظهر في العقل الشهادة بدينه وشرعه، وبثوابه وعقابه وهذا يدل على إثبات المعاد بالعقل، كما يدل على إثباته بالسمع. وكذلك دينه وأمره وما بعث به رسله، هو ثابت في العقول جملة، ثم علم بالوحي.

فقد تطابقت شهادة العقل والوحي على توحيده وشرعه والتصديق بوعده ووعيده، وأنه سبحانه دعا عباده على ألسنة رسله إلى ما وضع في

العقول حسنه والتصديق به جملة. فجاء الوحي مفصلاً ومبينًا ومقررًا ومذكرًا لما هو مركوز في الفطر والعقول.

فدل على أنه من المستقر في العقول والفطر انقسام الأفعال إلى قبيح وحسن في نفسه. وأن الرسل تدعو إلى حسنها وتنهى عن قبيحها؛ وأن ذلك من آيات صدقهم وبراهين رسالتهم؛ وهو أولى وأعظم عند أولي الألباب والحجي من مجرد خوارق العادات؛ وإن كان انتفاع ضعفاء العقول بالخوارق في الإيمان أعظم من انتفاعهم بنفس الدعوة وما جاء بها من الإيمان(*).

* * *

(*) الفتاوى جـ٨ ص٤٣٣ ـ مفتاح دار السعادة جـ٢ ص٦ .

الباب الثالث

الوحـــي

«الإيمان بالنبـوة أصل النجـاة والسـعادة فـمن لـم يحـقق هـذا البـاب اضطرب عليـه باب الهدى والضـلال والإيمان والكفـر، ولـم يميـز بين الخطأ والصـواب. بل كـما أن نور العين لا يرى إلا مـع ظهـور نور قـدامه، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة...»

* * * * *

الفصل الأول

العقل بمجرده يعلم ابتداءًا أنه لابد من إرسال الرسل والثواب والعقاب وأن الرب قادر على تعريف الناس بأنبيائه ورسله

قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ [البينة: ١]؛ أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم، يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم كما أن المنفك لا حجر عليه.

والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين، لا يؤمرون ولا ينهون، ولا ترسل إليهم رسل بل يفعلون ما شاءوا مما تهواه الأنفس.

والمعنى أن الله ما يخليهم ولا يتركهم، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولاً وهذا كقوله: ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ لا يؤمر ولا ينهى.

أي أيظن أن هذا يكون؟ هذا مالا يكون البتة، بل لابد أن يؤمر وينهى.

أما من كذب بالرسل بعد إرسالهم فكفره ظاهر. ولكن من ظن أن الله لا يرسل إليه رسولاً، وأنه يترك سدى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى؛ فهذا أيضًا مما ذمه الله؛ إذ كان لابد من إرسال الرسل ونزال الكتب، كما أنه أيضًا لابد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، وقيام القيامة.

ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨] وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ

عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ونحوه من القرآن مما يبين أن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والمعاد، مما لابد منه. وينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون؛ وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك؛ وأنه يمتنع أن لا يقع.

والآيات تضمنت مدح الرب وذكر حكمته وعدله وحجته في أن الكفار لم يكن الله ليدعهم ويتركهم على ما هم عليه من الكفر حتى يرسل إليهم رسولاً بشيراً ونذيراً.

فالآيات لم تتضمن مدحهم على بقائهم على الكفر حتى يأتي الرسول؛ فإن هذا غايته أن لا يعاقبوا عليه حتى يأتي الرسول ـ وهو لم يعذب واحداً إلا بعد أن جاءتهم البينة وقامت عليهم الحجة ـ لا أن يحمدوا عليه حتى يأتي الرسول فإن هذا لا يقوله عاقل؛ ولم يقله أحد.

والذين قالوا إن حكمته أو حكمه ومشيئته توجب ذلك؛ يقولون: إن ذلك قد يعرف بالعقل؛ فيقولون: إنه قد يعرف بالعقل أنه لابد من إرسال الرسل، وأن ذلك واجب في حكمه وحكمته. وهذا قول كثير من الطوائف أو أكثرهم.

وجمهور الفقهاء مع السلف يثبتون الحكمة والتعليل. وكذلك جمهورهم يثبتون للأفعال صفات بها كانت حسنة أو سيئة قبيحة؛ لا يجعلون حسنها وقبحها ترجيحًا لأحد الأمرين بلا مرجح بل لمحض المشيئة ـ كما تقول الجهمية ومن وافقهم ـ هذا قول الأئمة والجمهور.

وأما قدرته على تعريف الخلق بأنه نبيه، فإنه سبحانه وتعالى إذا كان قادراً على أن يهدي الإنسان الذي كان علقة ومضغة إلى أنواع العلوم بأنواع

من الطرق إنعامًا عليه؛ وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحمته ما فيه. فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه؛ وهذا أعظم النعم عليه والإحسان إليه.

ولذا كان أول ما أنزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق: ١-٥] اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ﴾ ففي الآية الأولىٰ إثبات الخالق تعالىٰ، وكذلك في الثانية. وفيها وفي الثانية الدلالة علىٰ إمكان النبوة، وعلىٰ نبوة محمد ﷺ.

فإن المقصود بهذه الآيات بيان الدليل علىٰ الخالق تعالىٰ؛ وهذا الدليل - وهو خلق الإنسان من علق - يشترك فيه جميع الناس؛ فهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه بالعقل والمشاهدة والأخبار المتواترة، فالإنسان هو المستدل وهو نفسه الدليل والبرهان والآية، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ [الذاريات: ٢١].

وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه، ويذكره كلما تذكر في نفسه وفيمن يراه من بني جنسه، فيستدل به علىٰ المبدأ والمعاد، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝٦٧ ﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وذكر بعد الخلق: التعليم، الذي هو التعليم بالقلم، وتعليم الإنسان مالم يعلم. فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة؛ لأن هذا التعليم الخاص أقرب إلى إثبات النبوة من مجرد الهدى العام المتناول للإنسان وسائر الحيوان، كما قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠] فإن النبوة نوع من التعليم.

وليس جعل الإنسان نبيًا بأعظم من جعله العلقة إنسانًا حيًا، عالمًا، ناطقًا، سميعًا، بصيرًا، متكلمًا، قد علم أنواع المعارف.

كما أنه ليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته والقادر على المبدأ كيف لا يقدر على المعاد؟ والقادر على هذا التعليم كيف لا يقدر على ذاك التعليم؟ وهو بكل شيء عليم، ولا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء.

وكون محمد ﷺ كان نبيًا أميًا هو من تمام كون ما أتى به معجزًا خارقًا للعادة؛ ومن تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وهذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية وبرهان على نبوته؛ فإنه لا يقدر عليه الإنس والجن ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

فمن هدى عباده إلى أن يرسلوا رسولاً بعلامة ويعلم المرسل إليه أنها علامة تدل على صدقه قطعًا، فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولاً ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله؟ وهذا كمن جعل غيره قديراً عليمًا حكيمًا؛ فهو أولى أن يكون قديراً عليمًا حكيمًا.

وإذا كان الواحد من الناس قادراً على إرسال رسول، وعلى أن يرسل علامة يعرف المرسل إليهم بها صدقه، فكيف لا يقدر الرب على ذلك؟

فإن إرسال رسول بدون علامة وآية تعرف المرسل إليهم أنه رسول، قبح وسفه في صرائح العقول، وهو نقص في جميع الفطر، فإذا كان هذا عيبًا ونقصًا، لا يرضاه الخلق لأنفسهم، وينزهون أنفسهم عنه، فالخالق سبحانه أَوْلَىٰ أن ينزه عن كل عيب ونقص.

فهذه الطريقة ـ قياس الأَوْلَىٰ ـ من أبلغ الطرق البرهانية، وهي مستعملة في القرآن في غير موضع.

وتدبر آيات قدرة الله تعالىٰ في خلقه يظهر للعقل قدرته تعالىٰ علىٰ إرسال رسل وأنبياء من البشر؛ وأما حكمته في إرسال بشر، فقد ذكر أنه من جنسهم، وأنه بلسانهم، فهو أتم في الحكمة والرحمة؛ وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملَك وأنه لو نزل ملَكًا لكان يجعله في صورة بشر ليأخذوا عنه. عالمين بما أمر به وأخبر به. كما يظهر أيضًا قدرته تعالىٰ علىٰ تعريف الخلق صدق من أرسله إليهم وأنه نبيه.

فهو سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فكيف يرسل إليهم رسولاً يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته، ولا يجعل لهم طريقًا إلىٰ معرفة صدقه؟ وهذا كتكليفهم بما لا يقدرون عليه، وما لا يقدرون علىٰ أن يعلموه؛ وهذا ممتنع في صفة الرب، وهو منزه عنه سبحانه، فإنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

وهو الذي خلق فسوىٰ، والذي قدر فهدىٰ، وهو الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ. فكيف لا يقدر أن يهدىٰ عباده إلىٰ أن يعلموا أن هذا

رسـوله، وأن مـا جـاء بـه من الآيات آية من الله، وهي شـهـادة من الله له بصدقه.

والكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة التي يوجب فعل ما تقتضيه الحكمة، ويمتنع فعل ما تنفيه. إذ ما زال العقلاء يستدلون بما علموه من صفات الرب على ما يفعله، والحكمة والعدل والرحمة والسُّنة والعادة تعلم بالعقل؛ والعقل يستدل بما علم من أفعاله المحكمة المتقنة على علمه وعلى حكمته. ومن مقتضى الحكمة والإتقان وضع كل شيء في موضعه المناسب له، لتحصل به الحكمة المقصودة منه، ولذا لا يجوز عليه أن يسوي بين الصادق والكاذب عليه.

فحكمة الرب تقتضي أن يفرق بين هذه الأنواع، بما يناسب الصادق العالم العادل المصلح من الكرامة، وما يناسب الكاذب الظالم الجاهل المفسد من الهوان كما قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [ص: ٢٨] وكذلك قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ [الجاثية: ٢١].

فالمقصود هنا: أن هذا كله يستلزم أن الرب منزه عن أن يفعل بعض الأمور الممكنة المقدورة لكون ذلك يستلزم أمراً يناقض حكمته.

فكما أنه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب أو يظلم؛ فإنه سبحانه وتعالى منزه عن تصديق الكاذب، وحكمته تمنع ذلك. إذ لا يفعل القبيح إلا من هو جاهل أو لمجرد الشهوة، والله منزه عن هذا وهذا فيمتنع أن يفعل القبيح.

وهذه أصول عظيمة: من تصورها تصوراً جيدًا، انكشف له حقائق هذا الموضع الشريف.

فإذا تبين بالبراهين اليقينية أن الرب لا يجوز عليه خلاف الحكمة والعدل؛ علم بالاضطرار أن الرب سبحانه لا يسوىٰ بين هؤلاء الصادقين ـ وهؤلاء ـ الكاذبين عليه ـ فضلاً عن أن يفضل الأشرار علىٰ الأخيار، لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته، ولا في سلطان النصر والتأييد.

فإن هذا مقتضىٰ سنته التي لا تتبدل، وحكمته التي هو منزه عن نقيضها، وعدله سبحانه: وهو تسويته بين المتماثلات وتفريقه بين المختلفات.

فكيف يسوي بين أفضل الناس وأكملهم صدقًا، وبين أكذب الناس وشرهم كذبًا، فيما يعود إلىٰ فساد العالم في العقول والأديان والأبضاع والأموال والدنيا والآخرة.

بل هذا أعظم من أن يقال: إنه خلق أطعمة نافعة، وسمومًا قاتلة، ولم يميز بينهما، بل كل ما أكله الناس جاز أن يكون من هذا وهذا ومعلوم أن من جوّز مثل هذا علىٰ الله فهو مصاب في عقله.

وهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها، قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به.

ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها والله تعالىٰ يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب

ذلك فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة.

وتلك سنته وعادته في أمثاله، يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص؛ الذين هم الأنبياء مثلاً.

ولهذا كل من كان كاذبًا ظهر عليه كذبه بعد مدة. إذ جعل الله في القلوب هداية ومعرفة بين الصادق والكاذب. ولم يعرف قط في بني آدم أنه اشتبه صادق بكاذب إلا مدة قليلة، ثم يظهر الأمر. فإن التمييز بين الصادق والكاذب يظهر لجمهور الناس وعامتهم بعد مدة، ولا يطول اشتباه ذلك عليهم.

والرب سبحانه وتعالى لا يؤيد الكذاب عليه؛ لكنه قد يمهله مدة ثم يهلكه. هذه هي سنته وعادته ـ التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين ـ والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته، التي هي سنته التي قال فيها: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣)﴾ [الفتح: ٢٣] وقال: ﴿.. فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣)﴾ [فاطر: ٤٣] (*).

(*) الفتاوى جـ١٦، ٢٥٤، ٤٩٥ ـ النبوات ص٥٣، ١٨٤، ٢٤١، ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٦٧، ٣٨٤.

الفصل الثاني

الأنبياء جنس معروف ومعتاد في البشر وصفاتهم وأفعالهم وأخبارهم وآياتهم معروفة ومتواترة

«النبي» هو المنبأ عن الله؛ و«الرسول» هو الذي أرسله الله تعالى. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً. والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة باتفاق المسلمين؛ لأنها هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة بخلاف غير الأنبياء، فإنهم ليسوا معصومين، ولو كانوا أولياء لله.

والنبي قد علمه الله من الغيب الذي عصمه فيه عن الخطأ مالم يعلمه إلا نبي مثله. فإن قيل: فحينئذٍ لا يعرف أن الآية مختصة بالنبي حتى تعرف النبوة قبل. أما بعد وجود الأنبياء في العالم؛ فهكذا هو.

ولهذا يبيّن الله عز وجل نبوة محمد في غير موضع باعتبارها بنبوة من قبله. وتارة يبين أنه لم يرسل ملائكة؛ بل رجالاً من أهل القرى ليبيّن أن هذا معتاد معروف، ليس هو أمرًا لم تجرِ به عادة الرّب.

وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن اسماعيل؛ فقال الله لهم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] يعني أهل الكتاب ﴿إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: ٧] هل أرسل إليهم رجالاً أو ملائكة.

ولهذا قال له: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ آل عمران: ١٤٤] يبّين أن هذا الجنس من الناس معروف، قد تقدم له نظراء وأمثال؛ فهو معتاد في الآدميين - وإن كان قليلاً فيهم.

وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من أمور الأنبياء، هل هو من جنس ما جاء به محمد، أو هو مخالف له، ليتبين بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبياء، وحينئذٍ فيعرف قطعًا أن محمدًا نبي، بل هو أحق بالنبوة من غيره.

والثاني أن يسألوهم عن خصوص محمد وذكره عندهم؛ وهذا يعرفه الخاصة منهم، ليس هو معروفًا كالأول يعرفه كل كتابي.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] والمقصود جنس الشاهد الذي يجب تصديقه سواءً كان واحدًا يقترن بخبره ما يدل على صدقه، أو كان عددًا يحصل بخبرهم العلم.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد: ٤٣] فمن عنده علم الكتاب شهد بما في الكتاب الأول؛ وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل، ويشهد أيضًا بالعين. وكل من الشهادتين كافية، فمتى ثبت الجنس علم قطعًا أن المعين منه.

فالنبوة أمر معتاد في بني آدم، كما أن السحر معتاد فيهم؛ كما أن العقلاء معتادون في بني آدم؛ والمجانين معتادون فيهم. فإذا قالوا عن الشخص إنه مجنون؛ فإنه يُعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله. وكذلك يُعرف هل هو من جنس الأنبياء أو من جنس السحرة.

ولهذا لما قالوا عن محمد إنه شاعر؛ وقالوا إنه كاهن، ذكر الله تعالى

الفرق بين هذين وبين النبي، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣] ثم قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٤ـ ٢٢٦].

ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم أن يقولوا للناس هو شاعر ومجنون وساحر وكاهن، صار يبين لهم أن هذه الأقوال فاسدة، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الأجناس.

فالمقصود أن هذه الأجناس كلها موجودة في الناس معتادة معروفة، وكل واحد منها يعرف بخواصه المستلزمة له، وتلك الخواص آيات له مستلزمة له. فكذلك النبوة، لها خواص مستلزمة لها تعرف بها، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبياء ـ وإن كانت معتادة للأنبياء ـ فهي لا توجد لغيرهم.

فإذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي ـ لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما ـ كان دليلاً على نبوته.

بل طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص، يُعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم، كما يُعرف الأطباء والفقهاء.

ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه وصالح وقومه، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم.

فيذكر وجود هؤلاء وأن قومًا صدقوهم وقومًا كذبوهم ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم، فيعلم بالإضطرار حينئذٍ ثبوت هؤلاء، ويتبين وجود آثارهم في الأرض. فمن لم يكن رأي في بلدة آثارهم فليسر في الأرض ولينظر أثارهم، وليسمع أخبارهم المتواترة.

ولذلك فإن إنكار المتواترات أصل من أصول الإلحاد والكفر؛ فإن المنقول عن الأنبياء بالتواتر من المعجزات وغيرها هو صحيح لاشك فيه.

وإذا قال أحد من الناس: هذا لم يتواتر عندي فلا تقوم به الحجة عليّ، كما يقول من يقول من الكفار: إن معجزات الأنبياء غير معلومة له؛ فيقال له: إسمع كما سمع غيرك؛ وحينئذ يحصل لك العلم.

إن عدم العلم، ليس علمًا بالعدم. وعدم الوجدان، لا يستلزم عدم الوجود. فهم إذا لم يعلموا ذلك، لم يكن هذا علمًا منهم بالعدم، ولا يعدم علم غيرهم فليس عند من أنكروا المتواترات دليل عقلي ينفي هذه المتواترات.

بل اشتراك الناس في المتواترات أكثر من اشتراكهم في الحسيات، فما يدرك بالحواس فإنه يختص بمن أحسه. فإذا قال رأيت أو سمعت أو ذقت أو لمست أو شممت، فكيف يمكنه أن يقيم من هذا برهانًا على غيره؟ ولو قدر أنه شاركه في تلك الحسيات عدد فلا يلزم من ذلك أن يكون غيرهم أحسها، ولا يمكن علمها لمن لم يحسها إلا بطريق الخبر.

فليس من الضروري اشتراك جميع الناس في تجارب فرد أو عدد من الأفراد لمعرفة صدق التجربة، بل غاية الأمر أن تنقل التجربة في ذلك عن بعض الأطباء ـ مثلاً ـ أو بعض أهل الحساب، إذ عامة المجربات لا يعرفها

أكثر الناس إلا بالنقل فإنه قد يتواتر عند هؤلاء؛ ويجرب هؤلاء مالم يتواتر عند غيرهم ويجربوه مثل العلم بوجود مكة، أو وجود البحار، ووجود الأنبياء، فإن هؤلاء تواتر خبرهم إلىٰ الناس عامة، ولا حاجة إلىٰ إقامة الدليل علىٰ وجودهم بالنسبة لكل شخص بمفرده.

فالله سبحانه يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداءً كما في السور المكية حتىٰ يثبت وجود هذا الجنس، وسعادة من اتبعه، وشقاء من خالفه. ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة، لأن الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء.

فمن أقر بجنس الأنبياء كان إقراره بنبوة محمد في غاية الظهور، أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء؛ فإذا رأىٰ نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم، كان إقراره بذلك من أبين الأمور.

ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد: إما أن يكون لجهله بما جاء به، وهو الغالب علىٰ عامتهم، أو لعناده، وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم.

والعرب عرفوا ما جاء به محمد، فلما أقروا بجنس الأنبياء لم يبق عندهم في محمد شك.

وجميع ما يذكره الله تعالىٰ في القرآن من قصص الأنبياء يدل علىٰ نبوة محمد بطريق الأولىٰ، إذ كانوا من جنس واحد وثبوته أكمل.

فينبغي معرفة هذا؛ فإنه أصل عظيم(*).

---

(١) الفتاوىٰ جـ١ ص٥ ـ جـ٢ ص٤٢ ـ جـ٩ ص٢٤٣ ـ جـ١٠ ص٢٨٩ ـ النبوات ص٢٣ ـ الرد علىٰ المنطقيين، ص٩٢.

الفصل الثالث

الرسل تأتي بالآيات والبراهين والحجج العقلية الدالة على صدق خبرهم ووجوب طاعتهم

الله سبحانه وتعالىٰ أخبر في غير موضع عن الرسول ﷺ أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فتلاوة الآيات يحصل بها العلم فإن الآيات هي العلامات والدلالات فإذا سمعوها دلتهم علىٰ المطلوب، من تصديق الرسل فيما أخبر، والإقرار بوجوب طاعته.

وسميت آيات القرآن آيات ـ وقيل إنها آيات الله، كقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢] ـ لأنها علامات ودلالات علىٰ الله وعلىٰ ما أراد فهي تدل علىٰ ما أخبر به، وعلىٰ ما أمر به ونهىٰ عنه.

وتدل أيضًا علىٰ أن الرسول صادق؛ إذ كانت مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وقد تحداهم بذلك.

وأيضًا فهي في نفسها فيها من بينات الأدلة والبراهين ما يبين الحق فهي آيات من وجوه متعددة.

فالأنبياء جاءوا بالآيات الدالة علىٰ العلم؛ التي يعلم بالعقل أنها دلائل الرب، إذ الآيات تعلم دلالتها بالعقل.

والآيات القرآنية في هذا كثيرة تذكر أن جميع الأنبياء جاءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل.

فإن الرسول لابد أن يبّين أصول الدين؛ وهي البراهين الدالة علىٰ أن ما

يقوله حق من الخبر والأمر؛ ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر.

ومن الممتنع أن يرسل الله رسولاً يأمر الناس بتصديقه ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه.

وكذلك من قال إني رسول الله؛ فمن الممتنع أن يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلاً له، وحجة على الناس، هذا لا يظن بأجهل الخلق، فكيف بأفضل الناس.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) ﴾ [البقرة: ١٥٩] ففي الهدى: بيان المعبود وما يعبد به. والبينات: فيها بيان الأدلة والبراهين على ذلك.

فليس ما يخبر به ويأمر به من الهدى، قولاً مجرداً عن دليله، ليؤخذ تقليداً واتباعًا للظن؛ بل هو مبين بالآيات البينات؛ وهي الأدلة اليقينية والبراهين القطعية.

وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] فهو يهدي الناس إلى صراط مستقيم. وهو بينات: دلالات وبراهين من الأدلة الهادية المبينة للحق. ومن الفرقان: المفرق بين الحق والباطل، بين البينات والحجج الصحيحة، والمعارضات والشبهات الفاسدة.

وهذا وأمثاله كثير، يبين أن في القرآن الأدلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الأخبار والأوامر.

وإذا وجب أن يؤخذ عن الأنبياء ما أخبروا به من أصول الدين ومن تصديق خبرهم، فلأن يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد من الآيات والبراهين أولى وأحرى وإلا فتصديق الخبر يتوقف على دليل صحته؛ أو على صدق المخبر به.

وتصديقه بدون أن يعلم أنه في نفسه حق؛ أو أن المخبر به صادق، قول بلا علم. ولهذا أمر أهل العقل بتدبر ما جاء به الرسول ـ وهو القرآن ـ فدعا فيه إلى التدبر، والتفكير، والتذكر، والعقل، والفهم.

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد: أصول الإسلام أربعة:

دال، ودليل، ومبيِّن، ومستدل.

فالدال: هو الله.

والدليل: هو القرآن.

والمبيِّن: هو الرسول. قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

والمستدل: هم أولوا العلم وأولوا الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ولذلك كان من أعظم أصول الضلال: الإعراض عن بيان الرسول للأدلة والآيات والبراهين والحجج.

فإن المعرضين عن هذا: إما يصدقوه ويقبلوا قوله ويؤمنوا به بلا دليل أصلاً ولا علم. وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته.

فإن ظن الظان أنه بأدلة وبراهين خارجة عما جاء به، تدل على ما جاء به؛ فهو من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل إلى مقصوده.

وصفوة الأمة وخيارها ـ من الصحابة وغيرهم ـ المتبعون للرسول علمًا وعملاً، يدعون إلىٰ النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله؛ وتدبر القرآن وما فيه من البيان.

فالنظر الشرعي: هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدىٰ. والدليل الذي يستدل به هو الدليل الشرعي: وهو الذي دل الله به عباده، وهداهم إلىٰ صراط مستقيم.

فمثلاً؛ الاستدلال علىٰ الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة. قال تعالىٰ مبينًا القدرة علىٰ الإبتداء: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥].

وهي طريقة عقلية صحيحة. وهي شرعية دل القرآن عليها، وهدي الناس إليها، وبينها وأرشد إليها؛ وهي عقلية.

فإن نفس كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن، ومولودًا ومخلوقًا من نطفة، ثم من علقة؛ هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول؛ بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، سواءً أخبر به الرسول أو لم يخبر؛ لكن الرسول أمر أن يستدل به؛ ودل عليه وبينه واحتج به.

فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به، وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته. فهو عقلي شرعي.

وكذلك غير ذلك من الأدلة التي في القرآن؛ مثل الاستدلال بالسحاب والمطر. هو مذكور في القرآن في غير موضع؛ وهو عقلي شرعي.

فالآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق؛ هي آيات عقلية، يستدل بها العقل على أن القرآن حق. وهي شرعية، دل الشرع عليها وأمر بها. والقرآن مملؤ من ذكر الآيات العقلية التي يستدل بها العقل. وهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها.

وأصول الدين الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ قد بينها الله في القرآن أحسن بيان. وبين دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب وصفاته. وبيّن دلائل نبوة أنبيائه وبين المعاد: بيّن إمكانه، وقدرته عليه، في غير موضع؛ وبيَّن وقوعه؛ بالأدلة السمعية والعقلية.

والمقصود هنا أن ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل؛ فإن الذي بعث الله به محمداً وغيره من الأنبياء هو حق وصدق؛ وتدل عليه الأدلة العقلية، فهو ثابت بالسمع والعقل. والذين خالفوا الرسل ليس معهم لا سمع ولا عقل.

ولهذا لم يكن من شرط الإيمان بالأنبياء وجود الآيات، بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك فمن الناس من يهتدي بنفس ما جاء به الرسول، وما دعا إليه؛ ويكون ذلك عنده هو دليل صدقه وبرهان رسالته، دون أن يطلب منه برهانًا خارجًا عن ذلك كحال الكمل من الصحابة كالصديق رضي الله عنه.

ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال؛ وأن عادة الله أن لا يخزئ من قامت به تلك الأوصاف والأفعال، لعلمه بالله ومعرفته به وأنه لا يخزئ من كان بهذه المثابة؛ كما كانت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها. وكذلك أبو بكر

الصديق وزيد بن حارثة وورقة بن نوفل وغيرهم، علموا صدقه ﷺ علمًا ضروريًا لما أخبرهم بما جاء به وقرأ عليهم ما أنزل عليه وما يعرفون من صدقه وأمانته. وكذلك حال هارون مع موسىٰ آمن به لما أخبره أن الله أرسله وأنه أمره أن يؤازره فصدقه لما يعلم من حاله قديمًا وقبل أن يظهر له الآيات.

وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة، بل إذا أخبره - وهو خبير بحاله أو بحال ذلك المخبر به أو بهما - علم بالضرورة إما صدقه وإما كذبه فمن كان يعلم صدق موسىٰ والمسيح ومحمد وغيرهم؛ وأنهم لا يكذبون في أخف الأمور - فكيف بالكذب علىٰ الله - إذا أخبرهم أحدهم بما جاءه من الوحي والرسالة، وما غاب من الملائكة؛ فإنه يجزم بصدقه من غير آية؛ لا سيما إن كان ما يقوله لهم مما يؤيد صدقه.

وهذه المقامات عجز عندها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلىٰ الآيات والخوارق المشهودة بالحس، فآمن كثير منهم عليها.

وأضعف الناس إيمانًا من كان إيمانه صادراً من المظهر ورؤية غلبته ﷺ للناس؛ فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصر علىٰ صحة الرسالة.

فإذن دلائل الصدق والكذب لا تنحصر؛ كدلائل الحب والبغض، هي كثيرة جدًا؛ وهذا يعرفه من جرَّب عادات الناس.

ولهذا كانت طرق الهداية كثيرة ومتنوعة؛ رحمة من الله بعباده ولطفًا بهم؛ لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم(*).

(*) الفتاوىٰ جـ٢ ص٣ - النبوات ص٤٤، ٥٨، ١٧٦، ٢١٤، ٢٢٧، ٢٣٨، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٨٢، ٣٠٨، ٣٣٨ - مفتاح دار السعادة جـ٢ ص١٢.

الفصل الرابع

آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كثيرة ومتنوعة ومعجزاتهم خارقة للعادة خارجة عن قدرة الإنس والجن

الآية في اللغة هي العلامة. وسميت الآية من القرآن آية لأنها علامة وقيل سميت آية لأنها عجب من العجائب؛ وهو داخل في معنى كونها آية من آيات الله؛ فإن آيات الله كلها عجيبة خارجة عن قدرة البشر. ولكن لفظ الآية قد يخص في العرف بما يحدثه الله، وأنها غير المعتاد دائمًا.

وآيات الأنبياء الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة. وكل من خص دليل الصدق بشيء معين فقد غلط. بل آيات الأنبياء من آيات الله الدالة على أمره ونهيه ووعده ووعيده.

وآيات الله كثيرة متنوعة؛ كآيات وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته سبحانه وتعالى، والقرآن مملوء من تفصيل آياته وتصريفها وضرب الأمثال في ذلك؛ وهو يسميها آيات وبراهين. وآيات الأنبياء هي أدلة وبراهين على صدقهم سماها الله برهانًا وآيات في مواضع كثيرة من القرآن.

وآيات الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا تحد بحدود يدخل فيها غير آياتهم. فيمتنع أن تكون معتادة لغيرهم، ويمتنع أن يأتي من يعارضهم بمثلها ويمتنع على من كذبهم أن يأتي بمثلها.

وهي لابد أن تكون خارقة للعادة؛ خارجة عن قدرة الإنس والجن؛ ولا يمكن لأحد أن يعارضها.

مثل: الإتيان بالقرآن؛ ومثل الإخبار بأحوال المتقدمين وأممهم والإخبار بما يكون يوم القيامة وأشراط الساعة؛ ومثل إخراج الناقة من الأرض، ومثل قلب العصا حية وشق البحر، ومثل أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله؛ وتسخير الجن لسليمان لم يكن مثله لغيره.

وكان النبي ﷺ يضع يده في الماء فينبع الماء من بين أصابعه؛ وهذا لا يقدر عليه لا إنس ولا جن، كذلك الطعام القليل يصير كثيراً وهذا لا يقدر عليه لا الجن ولا الإنس.

ومن آيات الأنبياء تصديق بعضهم لبعض؛ فآية كل نبي آية لجميع الأنبياء؛ فما أتى به الأول من الآيات فهو دليل على نبوته، ونبوة من يبشر به؛ وما أتى به الثاني فهو دليل على نبوته ونبوة من يصدقه ممن تقدم.

فما أتى به موسى والمسيح وغيرهما من الآيات فهي آيات لنبوة محمد لإخبارهم بنبوته، فكان هذا الخبر مما دلت آياتهم على صدقه. وما أتى به محمد من الآيات، فهو دليل على إثبات جنس الأنبياء مطلقًا؛ وعلى نبوة كل من سمى في القرآن، وكذلك اتفاق الرسل كلهم ـ في العلوم التي لا تعلم إلا بخبرهم ـ على الإخبار بها من غير تواطؤ ولا اتفاق بينهم؛ هي من دلائل نبوتهم كلهم. فكل من علم ما جاء به موسى والنبيون قبله وبعده، وما جاء به محمد ﷺ ـ وقد نشأ بين قوم أميين لا يقرأون كتابًا ولا يعلمون علوم الأنبياء ـ علم يقينًا أنهم كلهم مخبرون عن الله صادقون في الإخبار عنه؛ وأنه يمتنع عليهم خلاف الصدق من خطأ أو كذب. بل كلهم قد جاءوا

من العلوم النافعة والأعمال الصالحة بما هو معلوم عند كل عاقل لبيب، ولا ينكره إلا جاهل غاو. فأهل الملل أكمل في العلوم النافعة والأعمال الصالحة ممن ليس من أهل الملل. والنظر في هذه العلوم ـ الشرعية والعقلية ـ يثبت ويدل على صحة ما جاء به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وأهل الكتاب يشهدون بما جاءت به الأنبياء قبل محمد فيشهدون أنهم أتوا بمثل ما أتى به؛ كالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الشرك، والإخبار بيوم القيامة، والشرائع الكلية. ويشهدون أيضًا بما في كتبهم من ذكر صفاته ورسالته وكتابه.

وهذان الطريقان بهما تثبت نبوة النبي ﷺ؛ وهي: الآيات والبراهين الدالة على صدقه، أو شهادة نبي آخر قد علم صدقه له بالنبوة.

فذكر هذين النوعين بقوله: ﴿ ..قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد: ٤٣]، فتلك يعلم بها صدقه بالنظر العقلي في آياته وبراهينه وهذه يعلم بها صدقه بالخبر السمعي المنقول عن الأنبياء قبله.

وشهادة الله سبحانه لأنبيائه بالصدق ـ التي هي أعظم الشهادات ـ تكون بالآيات والبراهين التي أرسل بها الرسل ليدل بها العباد على صدقهم؛ فهي تجرى مجرى قول المرسِل: صدقت. فهي تصديق بالفعل، تجرى مجرى التصديق بالقول. إذ كان الناس لا يسمعون كلام الله المرسل منه؛ فكانت المعجزة تصديق للرسول، أي: إخبار بصدقه، وشهادة له بالصدق، وشهادة له بأنه أرسله، وشهادة له بأن كل ما يبلغه عنه كلامه.

والله سبحانه قد بين شهادته بالطريقين: بالسمع والبصر، بالفعل الذي

يبين الحكمة والخبر الذي يبين العلم. فالبصير يعاين آياته المخلوقة الفعلية؛ والسميع يسمع آياته المتلوة المنزلة.

وهو يُرئ العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق. كما قال تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ [فصلت: ٥٣] أي أو لم يكف بشهادته المخبرة بما علمه؛ وهو الوحي الذي أخبر به الرسول.

ولذا فالقرآن من أعظم الآيات البينة الدالة عل صدق من جاء به، وقد اجتمع فيه من الآيات مالم يجتمع في غيره. فإنه هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه؛ والحكم، وهو الدعوىٰ، وهو البينة علىٰ الدعوىٰ، وهو الشاهد، والمشهود به.

والقرآن آية باقية علىٰ طول الزمان من حين جاء به الرسول؛ تتلىٰ آيات التحدي به، ويتلىٰ قوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ [الطور: ٣٤] و ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ [هود: ١٣]. و ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [يونس: ٣٨] ويتلى قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك مع علمه بكثرة الخلق؛ دليل علىٰ أنه كان خارقًا يعجز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف، والعرب والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتابًا يقرأه الناس وقال إنه مثله؛ وهذا يعرفه كل أحد؛ فالقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب على معارضته.

فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية؛ وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية كل ذلك لا يوجد نظير له في العالم.

ونبينا ﷺ لما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان هذا من خصائصه ومن أعلام نبوته ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] فهذا ما حصل مثله لا لسليمان ولا لغيره وهو خارج عن قدرة الجن والإنس.

والرسول لما أخبرهم بما رآه، كذبوه في نفس الإسراء، وأنكروا أن يكون أسرى به إلى المسجد الأقصى. فلما سألوه عن صفته فوصفه لهم؛ وقد علموا أنه لم يره قبل ذلك؛ وصدقه من رآه منهم؛ كان ذلك دليلاً على صدقه في المسرى؛ فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه.

ومن آيات النبوة الكعبة المشرفة. فإنها بيت من حجارة بوادٍ غير ذي زرع؛ ليس عندها أحد يحفظها من عدو؛ ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة.

ومع هذا فقد حفظها الله بالهيبة والعظمة، فكل من يأتيها، يأتيها خاضعًا ذليلاً متواضعًا في غاية التواضع. وجعل فيها من الرغبة، ما يأتيها الناس من أقطار الأرض إلا محبة وشوقًا من غير باعث دنيوي.

وهي علىٰ هذه الحال من ألوف السنين، وهذا مما لا يُعرف في العالم لبنية غيرها. والملوك يبنون القصور العظيمة فتبقىٰ مدة ثم تهدم لا يرغب أحد في بنائها ولا يرهبون من خرابها، وكذلك ما بني للعبادات، قد تتغير حالها علىٰ طول الزمان، وقد يستولىٰ العدو عليها كما استولىٰ علىٰ بيت المقدس.

وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها. قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤ ﴾ [الفيل: ١-٥] فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم.

فالكعبة لها خاصة ليست لغيرها، وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم، مما يوجب لها مثل هذه السعادة والفرح والعظمة والدوام والقهر والغلبة.

ومن دلائل النبوة أيضًا ما يعاين من الآثار، وما يعقل بالقلوب، وما يعلم بالتواتر، من أحوال الأنبياء وأتباعهم؛ وأحوال من كذبهم وكفر بهم. وكيف أيد الله الأنبياء وأتباعهم لأنهم كانوا علىٰ الحق الذي يحبه ويرضاه - فطاعة الرسل طاعة لله - وكيف عاقب سبحانه مكذبيهم وانتقم منهم لأنهم كانوا علىٰ الباطل الذي يغضب الله علىٰ أهله، فمعصية الرسول معصية لله.

كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسىٰ، وقوم إبراهيم أوصلوه إلىٰ العذاب. وألقوه في النار. لكن جعلها الله بردًا وسلامًا.

والآيات التي فرق بها الله بين أتباع الأنبياء وبين مكذبيهم ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم، ولا يوجد نظيرها في العالم، بل هي مختصة بهم، ليست مما تكون لغيرهم.

فهذه الآيات تعرف العقلاء عمومًا أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم، فقد يحدث لبعض الناس جدب ونحو ذلك، وقد يميت الله بعض الناس بأنواع متعددة من البأس كالطواعين ونحوها؛ فهذا معتاد لغير مكذبي الرسل. وأما ذاك مما عذب الله به مكذبي الرسل فمختص بهم. وهو من جنس لم يعذب الله به إلا من كذب الرسل، فهو دليل على صدق الرسل.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾ [آل عمران: ١٣٧] فإن هذه العجائب والآيات التي للأنبياء تارةً تُعلم بمجرد الأخبار المتواترة، وإن لم نشاهد شيئًا من آثارها؛ وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وهذه الأخبار كانت منتشرة متواترة في العالم؛ وقد علم الناس أنها آيات للأنبياء، وعقوبة لمكذبيهم، ولهذا كانوا يذكرونها عند نظائرها للاعتبار، كما قال مؤمن آل فرعون ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾ [غافر: ٣٠، ٣١]، وقال شعيب: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩)﴾ هود: ٨٩].

ولذلك كان من دلائل النبوة: وجود العلم الضروري بخبر أهل التواتر الذين أخبروا بالآيات. فهذا العلم الضروري هو بمنزلة المشاهدة للآيات القاهرة والمعجزات الباهرة التي يمتنع أن تكون على يد مدعي النبوة؛ وهو كذاب من غير تناقض ولا تعارض.

فأخبار أهل التواتر بما جاءت به الأنبياء من الآيات، هو من أدلة ثبوتها إذ ليس من شرط دليل النبي أن يكون موجوداً في محل المدلول عليه؛ فقد يدل الدليل على النبوة مع موت النبي ومع غيبته، فإن موته وغيبته لا ينفي نبوته وليس من شرط دليل النبي أن يكون موجوداً في محل المدلول عليه، ولا في مكانه، ولا زمانه.

فآيات الأنبياء إذن ليس من شرطها استدلال النبي بها، ولا تحديه بالإتيان بمثلها، بل هي دليل على نبوته وإن خلت عن هذين القيدين.

وهذا كإخبار من تقدم بنبوة محمد، وإنه دليل على صدقه، وإن كان هو لم يعلم بما أخبروا به، ولا يستدل به.

وأيضًا فما كان يظهره الله على يديه من الآيات ـ مثل تكثير الطعام والشراب وغير ذلك ـ كله من دلائل النبوة، ولم يكن يظهرها للاستدلال بها، ولا يتحدىٰ بمثلها، بل لحاجة المسلمين إليها.

وكذلك إلقاء الخليل في النار، إنما كان بعد ثبوته ودعائه لهم إلى التوحيد. فالدليل الدال على المدلول عليه، ليس من شرط دلالته استدلال أحد به، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلاً إلى علم فهو دليل، وإن لم يستدل به أحد.

فالآيات أدلة وبراهين تدل؛ سواءً استدل بها النبي أو لم يستدل.

ولذلك فإن من جملة آيات الأنبياء: خوارق وكرامات الأولياء والصالحين فهي أيضًا من آيات الأنبياء، فإنها إنما تكون لمن يشهد لهم بالصدق والنبوة.

فالصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبياء؛ لا يخرجون عنها، فخوارقهم تلك من معجزات الأنبياء، فإنهم يقولون: نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الأنبياء؛ ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا.

فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبياء؛ فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الأنبياء؛ وهي من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص. فآيات النبوة أنواع متعددة: منها ما يكون قبل وجوده، ومنها ما يكون بعد موته، ومنها ما يكون في غيبته.

ومع هذا؛ فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين؛ فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم؛ ولكن قد يشاركونهم في بعضها، كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم. وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول، لا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله(*).

(*) الفتاوى جـ٤، ص١٨٦، ٢١٠ ـ النبوات ص٨، ٤٠، ١٥٣، ١٦٠، ١٧١، ٢٠٧، ٢٦١، ٢٨٢، ٢٩٢.

الفصل الخامس

الفروق بين آيات الأنبياء وبين السحر والكهانة ونحوها

(**الفرق الأول**) أن ما تخبر به الأنبياء لا يكون إلا صدقًا. والأنبياء لا تأمر إلا بالعدل؛ ولا تفعل إلا العدل.

فالنبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم، فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله وحده، والعمل بطاعته، والتصديق باليوم الآخر، والإيمان بجميع الكتب والرسل، فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الأنبياء.

فالأنبياء لا يخبرون إلا بحق، ولا يأمرون إلا بعدل، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد. لا يأمرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك ولا القول بغير علم.

فالأنبياء بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها؛ فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول.

فكما أنهم لا يختلفون فلا يناقض بعضهم بعضًا، بل دينهم وملتهم واحدة وإن تنوعت الشرائع، فهم أيضًا موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده موافقون للأدلة العقلية لا يناقضونها قط. بل الأدلة العقلية الصحيحة كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم. وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة ومتعاضدة لا يناقض بعضها بعضًا.

وأما الذين يخالفون الأنبياء ـ من السحرة والكهان وسائر أنواع الكفار

كعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور ـ هؤلاء المخالفون لابد لهم من الكذب والظلم؛ فإن ما خالف العدل لا يكون إلا ظلمًا؛ فيدخلون في العدوان على الخلق، وفعل الفواحش والشرك، والقول على الله بلا علم، وهي المحرمات التي حرمها الله مطلقًا.

فكل من خالف طريق الأنبياء لابد له من الكذب والظلم إما عمدًا وإما جهلاً. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)﴾ [الشعراء: ٢٢١] فليس من شرطه أن يتعمد الكذب، بل من كان جاهلاً يتكلم بلا علم فيكذب، فإن الشياطين تنزل عليه أيضًا.

فالأنبياء لا يقع في أخبارهم عن الله كذب، لا عمدًا، ولا خطأ، وكل من خالفهم لابد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورة.

والأنبياء كلهم منزهون عن الشرك، وعن التكذيب بشيء من الحق الذي بعث الله به نبيًا. وأما السحرة والكهان ونحوهم، فإنهم يخرجون عما اتفقت عليه الأنبياء، فكلهم يشركون مع تنوعهم، ويكذبون ببعض ما جاء به الأنبياء.

والأنبياء يصدق بعضهم بعضًا، ويوجب بعضهم الإيمان ببعض، ويأمرون بعبادة الله وحده، وبالصدق والعدل؛ ويتبرأون من الشرك وأهله، ويأمرون بقتل السحرة ومن آمن بهم، ومن كذب نبيًا. وهم يصححون سمع الإنسان وبصره وعقله.

وسائر السحرة والكهنة من أعظم الناس ذمًا للأنبياء وأمرًا بقتلهم، وهم يحبون أهل الشرك ويوالونهم، ويبغضون أهل التوحيد والعدل، ويفسدون

السمع والبصر والعقل.

فهؤلاء مخالفون للأدلة السمعية والعقلية السماعية والعيانية، مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول، يفسدون الحس والعقل كما يفسدون الأدلة السمعية. والحس والعقل بهما تعرف الأدلة. والطرق ثلاثة: الحس، والعقل، والخبر. فمخالفوا الأنبياء أفسدوا هذا وهذا.

(الفرق الثاني) أن النبوة لا تنال بكسب العبيد، ولا آياتها تحصل بكسب العباد بل الله يفعلها آية وعلامة لهم. فأمر الآيات إلى الله لا إلى اختيار المخلوق. والله يأتي بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيئته ورحمته. ولو قدر أنها تنال بالاكتساب فهي إنما تنال بعبادة الله وطاعته فإنه لا يقول عاقل إن أحداً يصير نبيًا بالكذب والظلم، بل بالصدق والعدل، فحينئذٍ يمتنع أن صاحبها يكذب على الله، فإن ذلك يفسدها.

وأما من خالف الأنبياء من السحرة والكهان ونحوهم؛ فإن هؤلاء لا تحصل لهم الخوارق إلا مع الكذب والإثم والشرك والفجور ونحو ذلك، بل خوارقهم مع ذلك أشد؛ لأنهم يخالفون الأنبياء، وما ناقض الصدق والعدل لم يكن إلا كذبًا وظلمًا.

(الفرق الثالث) أن آيات الأنبياء خارجة عن مقدور جميع العباد والملائكة والجن والإنس، لا يقدر عليها مخلوق.

فإن الإنس والجن قد يقدرون بأسباب مباينة لهم على أمور؛ كما يقدرون على قتل من يقتلونه وإمراضه ونحو ذلك.

وآيات الأنبياء لا يقدر أحد أن يتوصل إليها بسبب والسحر والكهانة مما

يمكن التوصل إليه بسبب، كالذي يأتي بأقوال وأفعال تحدثه بها الجن.

وآيات الأنبياء خارقة للعادات، عادات الإنس والجن، بخلاف خوارق مخالفيهم فإن كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء، كما هو معتاد للسحرة والكهان، وعباد المشركين، وأهل الكتاب، وأهل البدع والفجور.

فآيات الأنبياء ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله، ويصدقون من صدق على الله، وهم الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به.

وخوارق مخالفيهم معتادة لمن يفتري الكذب على الله أو يكذب بالحق لما جاءه، فهي آيات على كذب أصحابها، وآيات الأنبياء آيات على صدق أصحابها.

فإن الله سبحانه لا يخلي الصادق مما يدل على صدقه، ولا يخلي الكاذب مما يدل على كذبه، كما أخبر في غير موضع أنه لم يخلق الخلق عبثًا ولا سدى وإنما خلقهم بالحق وللحق، فلابد أن يجزي هؤلاء وهؤلاء بإظهار صدق هؤلاء، وإظهار كذب هؤلاء.

فالفرق بين جنس الأنبياء وجنس السحرة والكهنة واضح ومعلوم بضرورة العقل، بل هو أعظم من الفرق بين العاقل والمجنون، والعالم والجاهل، فهما جنسان متباينان متعاديان كتعادي الملائكة والشياطين.

فمن جعل النبي ساحرًا أو مجنونًا، هو بمنزلة من جعل الساحر أو المجنون نبيًا وهذا من أعظم الفرية والتسوية بين الأضداد المختلفة. وهو شر من قول من يجعل العاقل مجنونًا، والمجنون عاقلاً، أو يجعل الجاهل عالمًا، والعالم جاهلاً.

فكما يعلم بضرورة العقل من وجود أعظم الفرق بين الأنبياء وبين المجانين وأنهم أعقل الناس وأبعدهم عن الجنون، فكذلك يعلم بضرورة العقل أعظم الفرق بينهم وبين السحرة؛ وأنهم أفضل الناس وأبعدهم عن السحر.

فالساحر يفسد الإدراك والسحرة يزيدون الناس عمىً وصممًا وبكمًا والأنبياء يصححون سمع الإنسان وبصره وعقله، ويرفعون عن الناس عماهم وصممهم وبكمهم، والذين خالفوهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون(*).

(*) الفتاوىٰ جـ٢ ص٤٩ ـ النبوات ص٢٣٥، ٤١٢، ٤٢٢.

الفصل السادس

كما يستدل بالرّب وصفاته على ثبوت الرسالة فكذلك يستدل بثبوت الرسالة على الرّب وصفاته

قال القاضي أبو يعلىٰ: «ومثبتوا النبوات حصل لهم المعرفة بالله تعالىٰ بثبوت النبوة من غير نظر واستدلال في دلائل العقول.. ونحن لا نمنع صحة النظر، ولا نمنع حصول المعرفة به، وإنما خلافنا هل تحصل بغيره؟» أ هـ.

فاستدل بأن النبوة إذا ثبتت بقيام المعجزة، علمنا أن هناك مرسِلاً أرسله، إذ لا يكون هناك نبي إلا وهناك مرسِل، وإذا ثبت أن هناك مرسِل، أغني ذلك عن النظر والاستدلال في دلائل العقول علىٰ إثباته.

وقال البيهقي ما ذكره الخطابي: «وقد سلك بعض من بحث في إثبات الصانع وحدوث العالم طريق الاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة، لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها. فلما ثبتت النبوة، صارت أصلاً في وجوب قبول ما دعا إليه النبي وعلىٰ هذا الوجه كان إيمان أكثر المستجيبين للرسول»أهـ.

وكثير من المتكلمين يقولون: لابد أن تتقدم المعرفة أولاً بثبوت الرب وصفاته التي يعلم بها أنه هو، ويظهر المعجزة، وإلا تعذر الاستدلال علىٰ صدق الرسول، فضلاً عن وجود الرب.

وأما الطريقة التي ذكرها المتقدمون فصحيحة إذا حررت. وقد جاء القرآن بها في قصة فرعون، فإنه كان منكراً للرب، فقال له موسى: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) ﴾ [الشعراء: ٣٠ـ ٣٣]؛ فهنا قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن له إلهًا غير فرعون يتخذه.

وذلك أن المعجزة ـ التي هي فعل خارق للعادة ـ تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث، بل هي أخص من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يسبح الرب عندها ويمجد ويعظم مالا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته مالا يحصل للمعتاد.

إذ هي آيات جديدة فتعطي حقها، وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله فتتقرر بها الربوبية والرسالة ولهذا فإن هذه الأصول الثلاثة: توحيد الله، والإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر، هي أمور متلازمة.

فإن الرسل كلهم أمروا بالتوحيد: بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة شيء من المخلوقات سواه، أو اتخاذه إلهًا. وأن أهل السعادة هم أهل التوحيد، وأن المشركين هم أهل الشقاوة؛ وذُكِر هذا عن عامة الرسل، وأن الذين لم يؤمنوا بالرسل مشركون؛ فُعلم أن التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان.

وكذلك الإيمان باليوم الآخر، هو والإيمان بالرسل متلازمان؛ فالثلاثة متلازمة. ولهذا يجمع بينها في مثل قوله: ﴿.. وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾ [الأنعام: ١٥٠]. ولهذا أخبر أن الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

وأخبر عن جميع الأشقياء أن الرسل أنذرتهم باليوم الآخر، فأخبر أن الرسل أنذرتهم، وأنهم كذبوا بالرسالة، وأخبر عن أهل النار أنهم قد جاءتهم الرسالة، وأنذروا باليوم الآخر.

وأخبر عن جميع الجن والإنس أن الرسل بلغتهم رسالة الله؛ وهي آياته؛ وأنهم أنذروهم اليوم الآخر. وأخبر أنهم كفروا بآياته، وهي رسالته، وبلقائه وهو اليوم الآخر.

وقد أخبر أيضًا في غير موضع بأن الرسالة عمت بني آدم، وأن الرسل جاءوا مبشرين ومنذرين.

وكذلك الإيمان بالرسل كلهم متلازم؛ فمن آمن بواحد منهم فقد آمن بهم كلهم؛ ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم؛ وأن المفرقين بينهم بالإيمان ببعضهم دون بعض هم الكافرون حقًا.

فهذه الأصول الثلاثة: توحيد الله، والإيمان برسله، وباليوم الآخر، هي أمور متلازمة.

فكل من كذب الرسل فلن يكون إلا مشركًا، وكل مشرك مكذب للرسل. وكل مشرك وكافر بالرسل فهو كافر باليوم الآخر.

وكل من كفر باليوم الآخر فهو كافر بالرسل وهو مشرك(*).

(*) الفتاوى جـ٩ ص٢٩ ـ جـ١١ ص٣٧٧ ـ جـ١٨ ص٥٥.

الخاتمة

خلاصة البحث وأهم نتائجه

* الحقيقة الأولىٰ في فطرة الإنسان هي معرفة الله عز وجل.

* العلم بالله سبحانه وتعالىٰ هو أول الأوليات وأصل المصادرات وأثبت المسلمات وأعمق البديهيات وأرسخ الضروريات؛ وهو أصل كل الأصول، ودليل كل الأدلة وبرهان كل البراهين.

* الخلق مفطورون علىٰ معرفة الخالق قبل النظر والاستدلال بآياته.

* العلم بالله علم ضروري غرسه الله في نفوسنا ودلنا عليه وهدانا إليه.

* طريق العلم الفطري أرسخ وأكمل من الطرق النظرية القياسية أو الإرادية الذوقية.

* لا طريق إلىٰ الحق إلا الطريقة الفطرية الإيمانية أو ما يفضي إليها أو يقترن بها، فهي شرط قطعًا في درك المطلوب، وما سواها ليس بشرط.

* الطرق القياسية والذوقية إذا كان لابد فيها من تقليد في الأول، فالطريقة الفطرية الإيمانية - إذا فرض أنها كذلك - لم يقدح ذلك فيها، بل تكون هي أحق.

* الفطرة تتضمن العلم والعمل، والتصديق والانقياد، والإقرار والإنابة.

* الفطرة قد يعرض لها ما يفسدها، مثل ما يعرض للبدن الصحيح ما يمرضه، دون أن يقدح هذا في سلامة الأصل.

* الفطرة قوة غريزية تتضمن معرفة الحق والتصديق به ومحبته. فالله سبحانه وتعالىٰ خلق عباده حنفاء علىٰ هذه الفطرة، وذلك يتضمن: معرفة الرب، ومحبته، وتوحيده فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية، وهي معنىٰ قول [لا إله إلا الله].

* فطرة الله هي دين الله: الإسلام وهو العهد الذي أخذه الله علىٰ بني آدم في أصلاب آبائهم.

* الله عز وجل خلق عباده علىٰ الحنيفية، ثم اجتالتهم الشياطين بعد ذلك وأمرتهم أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطانًا.

* الفطرة كافية بذاتها لحصول المعرفة والإيمان، ولا يتوقف ذلك علىٰ وجود مؤثر خارجي منفصل، وإن كان وجوده قد يذكر ويحرك.

* الرسل يذكرون العباد بما هو مركوز في فطرتهم ويدعونهم إلىٰ موجب هذه الفطرة.

* العقل هو الغريزة التي يعلم بها الإنسان ويميز ويقصد المنافع دون المضار فالعقل المشروط في التكليف هو هذه العلوم الضرورية التي يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره.

* العقل يؤدي إلىٰ العلم واليقين بحيث يجده الإنسان في نفسه بالضرورة فالقلوب تجد نفسها عالمة وتحس بذلك كما تحس الأجسام بالطعام والشراب.

* العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال، لكنه ليس مستقلاً بذلك بل العلم يحصل بأسباب مجتمعة بعضها راجع إلىٰ قدرة العبد وبعضها خارج عنها وهي: الدليل الهادي، والانتفاع بهذا الدليل.

* الدليل الهادي للعقل هو على العموم والإطلاق: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والاهتداء والانتفاع بالدليل لا يتحقق إلا بتوفيق الله عز وجل.

* العقل والسمع والبصر هي أمهات ما ينال به العلم ويدرك، ولذا فاجتماع الحس والعقل هو الطريق إلى إدراك الحقائق المعينة الموجودة بالخارج من جهة ومعرفة حكمها العام من جهة أخرى: كالأمثال والأضداد والجمع والفرق، وهذا هو اعتبار العقل وقياسه.

* أعظم صفات العقل خاصتان: معرفة التماثل والاختلاف وهذا هو «الميزان» الذي فطر الله عليه عباده، ثم التمييز بين الحسن والقبيح. ولذلك اعتمد الشرع عليهما في إيراد الأدلة العقلية لإثبات التوحيد والنبوة والبعث.

* الأدلة الشرعية على التوحيد والبعث والنبوة وأمثال هذه الأمور أدلة «عقلية» أخبرنا الشرع بها ودلنا عليها وأرشدنا إليها.

* الأمثال المضروبة في القرآن هي «أقيسة عقلية» فالاستدلال بالقرآن والسنة على هذه المطالب «استدلال عقلي» يخاطب به المؤمن والكافر تستعمل فيه «الأدلة العقلية» التي جاءت في القرآن والسنة كأحسن ما تكون الأدلة العقلية مما لا يوجد مثلها في كلام أحد غير كلام الله ورسوله.

* الشرع يعتمد على البديهيات والضروريات العقلية ليبني عليها منهجه في الاستدلال، ويعتمد على ما تدركه الحواس لضرب الأمثلة أو الأقيسة العقلية التمثيلية التي هي أبلغ أنواع الأقيسة في إفادة العلم واليقين.

* الشرع يستعمل «قياس الأولى» في مسائل الصفات الإلهية، لا قياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع ولا قياس شمولي تستوى أفراده بل كل

كمال لا نقص فيه في المخلوقين فالله أولىٰ به، وكل نقص وعيب في نفسه فالله أولىٰ أن ينزه عنه.

* طريقة الأنبياء ـ الطريقة القرآنية ـ هي الاستدلال علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بنفس آياته التي يستلزم العلم بها العلم به ـ كاستلزام العلم بالشعاع: العلم بالشمس ـ من غير احتياج إلىٰ قياس كلي. وهذه الطريقة القرآنية الفطرية أدق وأكمل من الطرق النظرية القياسية والطرق العملية الذوقية.

* النبوة تعلم بالعقل ابتداءً فالعقل بمجرده يعرف أنه لابد من إرسال الرسل وإنزال الكتب ثم الثواب والعقاب يوم القيامة وأنه من الممتنع عقلاً أن يترك الإنسان سدىٰ مهملاً لا يؤمر ولا ينهي بل ذلك يتعارض مع صفات الرب عز وجل من الحكمة والعدل والرحمة.

* وكما يستدل العقل علىٰ الرسالة بالرب وصفاته، يستدل بالرسالة علىٰ الرب وصفاته، فالتوحيد والإيمان بالرسل متلازمان، وكذلك الإيمان باليوم الآخر والإيمان بالرسل متلازمان. فهذه الثلاثة: توحيد الله، والإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر، أصول متلازمة، وكذلك الإيمان بالرسل كلهم متلازم.

* النبوة يستدل عليها بآية خلق الإنسان من علقة ثم تعليمه مالم يكن يعلم، فليس جعل الإنسان نبيًا بأعظم من جعله العلقة إنسانًا حيًا عالمًا سميعًا بصيراً ناطقًا متكلمًا.

* الأنبياء جنس معروف ومعتاد في البشر وصفاتهم وأفعالهم وأخبارهم معروفة وعلومهم وآياتهم منقولة بالتواتر، ولذا كان إنكار المتواترات أصلاً من أصول الكفر والإلحاد.

* الرسول يأتي بالأدلة والبراهين والحجج «العقلية» الدالة على صدق خبره ووجوب طاعته، ولذلك يمكن أن يقال إن الرسل أدلتهم كلها عقلية، إذ العقل شرط في جميع العلوم.

* العلم لا يتحقق إلا بانضمام السمع إلى العقل؛ لا يكفي أحدهما بدون الآخر، وإذا وجب أن يؤخذ عن الأنبياء ما أخبروا به من أصول الدين ومن تصديق خبرهم، فلأن يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد من الآيات والبراهين العقلية أولى وأحرى؛ فصريح المعقول لا يخالف صحيح المنقول.

* القرآن مملوء بالآيات العقلية التي يستدل بها العقل على أن القرآن حق، فالقرآن هو الدليل والمدلول عليه، والدال هو الله سبحانه وتعالى، والمبيِّن هو الرسول ﷺ والمستدل هم أولوا الألباب والعلم.

* آيات الأنبياء لا تحد بحدود يدخل فيها غير آياتهم، بل يمتنع أن يأتي من يعارضهم بمثلها، بل هي خارقة لعادة غيرهم، خارجة عن قدرة الإنس والجن، لا يمكن لأحد أن يعارضها، ويمتنع على من كذبهم أن يأتي بمثلها.

* دلالة الآيات على النبوة وصدقها قد تعلم بالضرورة، وقد تعلم بالنظر والاستدلال فمن الناس من يكون اللزوم بين الدليل ومدلوله عنده بينًا لا يحتاج إلى نظر، ومنهم من يحتاج إلى النظر والاستدلال على هذا اللزوم.

* آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كثيرة ومتنوعة وغير منحصرة بل هي من آيات الله الدالة عليه وعلى صفاته وأمره ونهيه، وآياته تعالى كثيرة

ومتنوعة وغير منحصرة، ولهذا كانت طرق الهداية كثيرة ومتنوعة رحمة من الله بعباده ولطفًا بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم. وكل من خصها في شيء معين فقط فقد غلط.

* من جملة آيات الأنبياء: تصديق الأنبياء بعضهم بعضًا وإخبار أهل التواتر بما جاءت به الأنبياء من الآيات، واتفاق الرسل في العلوم التي لا تعلم إلا بخبرهم على الإخبار بها من غير تواطؤ ولا اتفاق بينهم، وخوارق وكرامات الأولياء والصالحين المتبعين للأنبياء، وتأييد الله للأنبياء ونصره لهم على المكذبين لهم من أقوامهم بآيات فريدة خاصة بهم والهزيمة والذلة والهلاك والخزي لأعدائهم، والكعبة المشرفة والخواص العجيبة لها من الإكرام والحفظ والشرف والهيبة والعظمة وهوى الناس إليها على مر التاريخ، والإسراء بنبينا محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ووصفه المسجد الأقصى وهو لم يره قبل ذلك، والقرآن الكريم آية باقية على طول الزمان لا نظير له تتلى آيات التحدي به فيعجز الناس عربهم وعجمهم على مر العصور.

* الفرق بين جنس الأنبياء وجنس السحرة والكهنة واضح ومعلوم بضرورة العقل، بل هو أعظم من الفرق بين العاقل والمجنون والعالم والجاهل، فهما جنسان متباينان متعاديان كتعادي الملائكة والشياطين.

* الله سبحانه وتعالى يمتنع في حكمته وعدله أن يسوي بين هؤلاء خيار الخلق. وبين هؤلاء شرار الخلق، لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته، ولا في سلطان النصر، والتأييد.

* الله سبحانه وتعالى قادر على هدي عباده وتعريفهم صدق من أرسله إليهم بتخصيص الصادق بما يستلزم صدقه. وهو سبحانه لا يكلف نفسًا إلا

وسعها، فكيف يرسل للناس رسولاً ولا يجعل لهم طريقًا إلى معرفة صدقه؟ هذا ممتنع في صفة الرب وهو منزه عنه سبحانه.

* الله سبحانه وتعالى لا ينقض سنته وعادته وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين ـ فالآيات التي خص بها الأنبياء لا تكون إلا مع النبوة؛ لا يجعل مثلها لغيرهم أبدًا، تلك سنته وعادته المطردة التي لا تنقض، ولا تتبدل ولا تتحول.

وأخيراً.. فإن منهج أهل السنة والجماعة في المطالب الإلهية هو منهج فطري عقلي إيماني سمعي شرعي في الوقت نفسه، وهو يخالف المناهج الكلامية والفلسفية في مبدأه ومادته وغايته:

ـ فمبدأ المناهج الكلامية والفلسفية هو المخلوق الناقص. وأما مبدأ المنهج الفطري الإيماني فهو الخالق الكامل الذي به سبحانه وتعالى نعرف الأشياء ونصل إلى الحق واليقين.

ـ ومادة المناهج الكلامية والفلسفية هي المقدمات المنطقية السقيمة والأقيسة العقلية العقيمة: ميراث رواد الفلسفات الوثنية الضالة المضلة. وأما مادة المنهج الفطري الإيماني فهي آيات الله السمعية العقلية الشرعية التي دلنا عليها سبحانه في كتابه وأرشدنا إليها وهدانا بها. ميراث النبوة الكريمة الهادية المهدية.

ـ وغاية المناهج الكلامية والفلسفية وأقصى ما تطمح إليه هو تحقيق المعرفة العقلية المجردة. وأما غاية المنهج الفطري الإيماني فهي غاية الوجود الإنساني نفسه: عبادة الله وحده لا شريك له: معرفته ومحبته وتوحيده:

العلم والعمل، التصديق والانقياد، الإقرار والإنابة، وهو الطريق الأوحد إلى كمال النفوس وصلاحها وغايتها ونهايتها.

اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم مراجع البحث

١ ـ مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام — ابن تيمية

٢ ـ النبوات — ابن تيمية

٣ ـ مفتاح دار السعادة — ابن القيم

٤ ـ شفاء العليل — ابن القيم

مراجع أخرى

١ ـ الرد علىٰ المنطقيين — ابن تيمية

٢ ـ درء تعارض العقل والنقل — ابن تيمية

٣ ـ نقض المنطق — ابن تيمية

٤ ـ نصيحة أهل الإيمان في الرد علىٰ منطق اليونان — ابن تيمية

٥ ـ جامع الرسائل — ابن تيمية

٦ ـ صون المنطق — السيوطي

٧ ـ جهد القريحة في تجريد النصيحة — السيوطي

٨ ـ مناهج البحث عند مفكري الإسلام — د. علي سامي النشار

٩ ـ منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري — د. محمد حسني الزين

١٠ ـ النظرية الخلقية عند ابن تيمية — د. محمد عبد الله عفيفي

١١ ـ ابن تيمية ـ من أعلام التربية — عبد الرحمن النحلاوي

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

